

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
كلية: الآداب والعلوم الاجتماعية
كلية: قسم اللغة العربية وآدابها

الرقم التسلسلي:.....

الاغتراب في شعري العلاء المعري

دراسة موضوعاتية فنية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير

فرع: أدب عربي قديم

تخصص: أدب عربي

إشراف الدكتور:
مصطفى البشير قط

إعداد الطالبة:
حياة بوعافية

تاريخ المناقشة:

أمام لجنة المناقشة المكونة من:

رئيسا	من جامعة: المسيلة	أستاذ محاضر	د. فتحي بوخالفة
مشرفا ومقررا	من جامعة: المسيلة	أستاذ محاضر	د. مصطفى البشير قط
ممتحنا	من جامعة: المسيلة	أستاذ محاضر	د. محمد زهار
ممتحنا	من جامعة: سطيف	أستاذ محاضر	د. خيرالدين دعيش

الموسم الجامعي: 2009/2008

مقدمة:

لقد مرّ الأدب العربي بعدة مراحل عبر مختلف العصور ابتداءً بالعصر الجاهلي، إلى غاية العصر العباسي الذي شهد تحولاً مميّزاً وتطوراً ملحوظاً في كل المجالات، لاسيما المجال الأدبي، الذي ينير لنا الطريق، ويساعدنا على الكشف عن وجه من أوجه الحضارة، وما هذا البحث سوى محاولة لإماتة اللثام وإظهار بعض الجوانب الخفية، ومحاولة لتسليط الضوء على مظهر من المظاهر المتواجدة والمشاهدة في تلك الفترة من العصر العباسي ألا وهو الاغتراب، وذلك من خلال شعر أبي العلاء المعري الذي يعدّ ظاهرة فريدة من نوعها، خاصة وأنّ هذا الموضوع؛ أي موضوع الاغتراب في شعر المعري -حسب علمي- لم يتناول بالدراسة من قبل،، رغم كثرة الدراسات حول هذا الشاعر وشعره، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فقد جاء هذا البحث وفي مجال الشعر بالذات دون النشر وهذا ما يعكس جبي الكبير للشعر وشغفي دائماً به ومحاولة الاستماع والاستمتاع به.

لهذه الأسباب إجتهدت إلى دراسة موضوع الاغتراب في شعر أبي العلاء المعري، وقد طرحت جملة من التساؤلات تشكل جوهر إشكاليته وهي:

- ما معنى الاغتراب؟ وهل هو؛ أي- الاغتراب- في العصر العباسي جديد أم قديم؟ وما هي أهم الدوافع التي ساعدت على ظهور الاغتراب في هذا العصر؟ ما هي أهم أنواع الاغتراب في الشعر العربي القديم؟ ما هي أهم الدواعي التي حملت المعري على الاغتراب زمانياً، واجتماعياً، وسياسياً، وكذا مكانياً؟ وكيف تجلّى كل نوع في شعره؟ وما مدى تأثير هذه الأنواع فيه، وما موقفه منها؟ كيف تجلّى الشوق والحنين في شعره؟ وما هي أقسامه؟ وما هي بواعثه؟.

- كيف تعامل مع غربته بأنواعها، وما هي الطرق والوسائل التي لجأ إليها للتخلص من هذا الأخير أو التخفيف من حدته؟ كيف سخرّ لغته لهذا الموضوع؟ وكيف عبّر عنه؟ والإجابة عن هذه الأسئلة شكلت بدورها هذا البحث الذي سار وفق خطة تمثلت في:

تمهيد ضم المنهج الموضوعاتي باعتباره المنهج المتبع في الدراسة، وجاءت فصول البحث كالاتي:
الفصل الأوّل تحت عنوان مفهوم الاغتراب وأنواعه وجذوره في الشعر العربي القديم، فهو بذلك يحمل ثلاثة عناصر كل عنصر منها يشرح ويفسر نقطة معينة من العنوان لهذا الفصل.
ففي العنصر الأوّل تناولت مفهوم الاغتراب في المجال اللغوي والاصطلاحي الذي ظهر عند طوائف من العلماء متمثلين في أهل الدّين والأدباء وعلماء النفس والفلاسفة .

أما الجزء أو العنصر الثاني فقد خص أنواع الاغتراب التي عانى منها الإنسان عموماً من مثل الاغتراب الزماني والمكاني والاجتماعي والسياسي وغيرها.

وبالنسبة للعنصر الثالث ضم جذور الاغتراب في الشعر العربي ومنذ العصر الجاهلي إلى غاية العصر العباسي، هذا العصر الذي توقفت عنده لأنه المعني بالدراسة ففيه ظهر شاعرنا وعانى من الاغتراب بأنواعه المختلفة.

هذا عن الفصل الأول، أما الفصل الثاني فقد ضمّ الاغتراب الزماني في شعر المعري، حاولت فيه تسليط الضوء على هذا النوع وإن كان مختصراً معرجة إلى لفظة الزمان أو موضوع الزمن أو الدهر ونظرة الناس إليه وما موقفهم منه؟.

هذا كله في توطئة كانت قبل التحدث عن عنصرين مهمين في هذا الفصل كانا أساس الاغتراب الزماني عند شاعر المعرفة أبي العلاء ألا وهما الشاعر وأحداث الزمان الذي يعدّ موضوعاً كغيره من الموضوعات التي عالجها المعري وأبدى رأيه فيها وهذا ما كنا دائماً نستشفه في أشعاره إذ أبدى لنا موقفه من الزمان الذي كواه بجواده ونوازله حتى ملّ العيش متمنياً بذلك الموت والخلاص من هذه الحياة التي هي كلها في نظره تعب وهم وحزن .

أما العنصر الثاني فهو الشاعر والموت فقد كانت هذه النقطة بارزة في شعره، لقد آمن المعري بهذه الحقيقة بعد إيمانه بالله.

وفضّل الموت على العيش في هذه الدنيا التي تحمل الكثير من الهموم والآلام والأحزان وكان تفضيله للموت لأسباب عديدة حاولت شرحها وتفسيرها أكثر في طيّات البحث.

وأما في الفصل الثالث، فقد أدرجت نوعين آخرين من الاغتراب ألا وهما الاغتراب الاجتماعي وكذا السياسي في شعر المعري، وكانت البداية في هذا الفصل بوضع توطئة، ثم تلك العناصر المتمثلة في الاغتراب عن الناس المتمثلين في النساء وأهل الدين والدجالين والأدباء .

أما العنصر الآخر فيتناول الاغتراب عن قيم المجتمع وعاداته وأعرافه السائدة، إضافة إلى الاغتراب السياسي في شعر الشاعر، وفي الفصل الرابع تحدثت عن الاغتراب المكاني، وقد تضمن الاغتراب عن الوطن ودواعيه عند المعري ، وكذا تجليات الشوق والحنين إلى وطنه وإلى بغداد، كما لم أنس عنصراً آخر في غاية الأهمية، وهو طرق قهر الاغتراب عند المعري وقد تمثلت في العزلة والزهد.

أما في الفصل الخامس وهو الأخير الذي كان تحت عنوان العناصر الفنية في شعر الاغتراب عند المعري، والذي شمل المعجم الشعري والصورة الفنية إضافة إلى البنية الإيقاعية.

ثم جاءت الخاتمة التي كانت عبارة عن خلاصة وحوصلة لأهم النتائج المتحصل عليها في البحث، وكذا قائمة المصادر والمراجع المعتمدة .

وعلى اعتبار أنّ موضوع الاغتراب هو موضوع قابل للتفرع والتجزؤ إلى موضوعات أخرى فإنه تراءى لي أن أتبع المنهج الموضوعاتي؛ في دراستي، فهو الأنسب لمثل هذه الدراسة، لأنه يستوعب مواضيع فرعية تنتمي إليه وتنحدر منه، مع اللجوء إلى الإحصاء عند الحاجة والضرورة.

وقد اعتمدت لإنجاز هذا البحث على دراسات متعددة ساعدتني في تجميع هذا الكم الهائل من المعلومات في هذا المجال، ومن بينها كتاب سميرة سلامي " الاغتراب في العصر العباسي القرن الرابع الهجري"، وأشرف علي دعدور في كتابه " الغربية في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة"، ويحيى العبد الله في كتابه " الاغتراب"، وصالح زامل في كتابه " تحوّل المثال"، وفاطمة حميد السويدي في كتابها " الاغتراب في الشعر الأموي"، وريتشارد شاخنت في كتابه "مستقبل الاغتراب"، ومي يوسف خليف في كتابها "ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات"، إضافة إلى سناء خضر في كتابها "النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين" أما مصدري الأساس في الدراسة فقد كانا ديوانا المعري سقط الزند واللزوميات، إضافة إلى كتب أخرى ومعاجم ومصادر استقيت منها معلومات حول كل ما يخص المعري واغترابه.

وأنا لا أنكر في أنه واجهتني صعوبات حمة ومنذ البداية سواء كانت في اختيار هذا الموضوع، أو في المعلومات المحصلة مما اضطرني إلى السفر إلى ولايات وجامعات ومكتبات أخرى للبحث وجمع قدر من الكتب التي تحوي هذا الموضوع.

كما أنّ المنهج الموضوعاتي الذي اخترته لمعالجة هذا الموضوع عند المعري كان في البداية يشكل لي غموضا وإبهاما خاصة وأنه لم يدرج على مسامعي فيما مضى، وهو يعدّ من المناهج التقديرية المعاصرة التي ما زالت لم تتبلور بعد.

ولكن وبفضل الله وتوفيقه استطعت أن أتغلب على الكثير من المشاكل والصعوبات التي كانت تعترض طريقي، كما لا أنسى دور الأستاذ المشرف عليّ الدكتور قط مصطفى البشير الذي لم يبخل علي بالنصائح القيّمة وهو الذي أرشدني إلى هذا الموضوع بعد حيرتي الكبيرة في اختيار موضوع محدد كما لا أنسى كل من قدّم إليّ يد العون سواء من قريب أو بعيد فإلى كل هؤلاء شكر وتقدير ومحبة وعرّفان مني إليهم جميعا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

1- مفهوم الاغتراب:

يعدّ مفهوم الاغتراب من أكثر المفاهيم التصاقاً بالإنسان، « فهو من طبيعته، بل يمكن القول أنه دافع من دوافعه الأساسية، يختلف من إنسان إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر، ذلك لأنه يتلون بطبيعة صاحبه وبالجمتمع وما يحكمه من أنظمة ومؤسسات وبطبيعة العصر بما يحتويه من قيم وأعراف ومعارف»⁽¹⁾.

وقد استخدم بطرق مختلفة ومعاني عديدة حتى أصبح يعاني من الغموض الشديد⁽²⁾، نادرا ما يتفق الباحثون على تحديد مفهومه، « فهم يذهبون مذاهب مختلفة في تعريفه فلا يستطيعون تحديد أنواعه ومصادره ونتائج السلوكية على الأفراد والمجتمع، فيقعون في الخلط مما يزيد من غموض هذا المصطلح وضبايته»⁽³⁾.

وبالرغم من هذا الغموض الحاصل إلا أننا سوف نورد قدر الإمكان معنى الاغتراب لغة واصطلاحاً، ومن وجهة عربية وغير عربية، لتبينه وتحديد مفاهيمه ودلائله عند طوائف من العلماء. ففي مجال اللغة ورد « لفظ (الاغتراب) في المعاجم العربية بمعنى الغربة عن الوطن»⁽⁴⁾ ، فقد جاء مثلاً في "لسان العرب" لابن منظور في مادة غرب: «غربت الشمس تغرب غروباً ومُعِيرَبَانًا: غابت في المغرب، والغرب: الذهاب والتّحّي عن النَّاس، وقد غرب عنا، يغرب، غرباً، وغرباً وأغرب وأغربه وأغربه: أي نُحَاه، والغربة والغرب التّزوح عن الوطن والاغتراب، واغترب الرجل نكح في الغرائب وتزوج في غير أقاربه وأغرب الرَّجُل: جاء بشيء غريب، وأغرب عليه، وأغرب به، صنع به صنعا قبيحا»⁽⁵⁾.

ونجد المعاني نفسها في "مختار الصحاح" في مادة غرب تقول: « (تغرب) و(اغترب). بمعنى فهو (غريب) و (غُربٌ) بضمّتين والجمع (الغُرباء) والغُرباء أيضا الأبعاد و(اغترب) فلان إذا تزوّج إلى غير أقاربه، وفي الحديث: (اغتربوا لا تضووا) وتفسيره مذكور في ض و ي. و(التّغريب) التّقي عن البلد و (أغرب) جاء بشيء غريب، وأغرب أيضا صار غريباً .

⁽¹⁾ عمر بوقرورة : الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945-1962)، منشورات جامعة باتنة ، (د، ط، د، ت)، ص: 13.

⁽²⁾ ينظر سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، دار البنايع، دمشق، ط1، 200، ص: 13.

⁽³⁾ صبار نورالدين: الاغتراب بين القيمة المعرفية والقيمة الجمالية، مجلة الموقف الأدبي ، ع 355، دمشق، إتحاد كتاب العرب، سبتمبر 2003،

www.awu.dam.org

⁽⁴⁾ صالح زامل: تحول المثال دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003، ص: 11.

⁽⁵⁾ ابن منظور، لسان العرب، الدار المتوسطة للنشر والتوزيع، الجمهورية التونسية ، ط1، 2005، مادة (غرب).

وأسود (غَرِيبٌ) بوزن قنديل أي؛ شديد السّواد، فإذا قلت: (غرايبب) سوّدٌ كان السّود بدلا من غرايبب لأنّ توكيد الألوان لا يتقدم و(الغرْبُ) و (المغرب) واحد، و(غَرَبٌ) بَعْدَ .

يقال (أغرْبُ) عني أي تباعد، و (غربت) الشمس وبأبهما دخل، و(العَرْبُ) بوزن الضَّرْبِ الدَّلْوِ العظيمة، و(غرْبُ) كل شيء أيضا حده، و (الغارِبُ) ما بين السنام إلى العنق ومنه قولهم، حبلك على غاربك: أي اذهب حيث شئت «(1).

ويشير "الأزهري" في معجمه "تهذيب اللغة" إلى هذا المفهوم (أي البعد عن الوطن) « يقال الغرب الذهاب والتنحي، ويقال أغربته و غربته إذا نحيتة ، والغرب هو التنحي عن حد الوطن، ويقال غرب الأمير فلانا إذا نفاه إلى بلده «(2).

وفي "أساس البلاغة" للزمخشري: « غ ر ب كفت من غربه أي من حدته واقطع عني غَرَبٌ لسانه، وإني أخاف عليك غرْبُ الشباب....

ورمى فأغرب: أي أبعد المرمى، وتكلم فأغرب: إذا جاء بغرائب الكلام ونوادره... وقد غرَبْتُ هذه الكلمة أي: غمضت فهي غريبة.

وأغرب الفرس في جريه، والرجل في ضحكته، إذا أكثر منه، ونهي عن الاستغراب في الضحك، وهو أقصاه...» (3).

فهذه إذن بعض المعاني التي وردت عن مفهوم الاغتراب في بعض المعاجم العربية أما إذا نظرنا إلى مفهوم هذا الأخير في المجال اللغوي وعند غير العرب أي؛ من وجهة عالمية سوف نجد يتعدد ويتلون بتلون المفاهيم واللغات والاتجاهات .

« فكلمة اغتراب (Alienation) في اللغة الإنكليزية، و (Aliénation) في اللغة الفرنسية، لهما أصل لاتيني واحد هو (Alienation) والمتبع لاستخدامات هذا الاصطلاح في اللغتين سيجد تماثلا كبيرا بينهما؛ لأن كافة الاستخدامات مستمدة من الأصل اللاتيني المشترك، ولذا يمكننا الحديث عن معاني هذا المصطلح في اللغتين معاً «(4).

وقد وجدت ثلاث نقاط تتعلق بمعنى الاغتراب وهي:

« 1 - قد يرتبط أحد استخدامات كلمة اغتراب (Alienation) بما يتعلق بالملكية .

(1)- الرازي: مختار الصحاح، تحقيق وشرح وضبط سعيد محمود عقيل ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان، (د، ط)، 2002، مادة (غرب).

(2)- أشرف علي الدعدور: الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة ، دار نمضة الشرق، جامعة القاهرة ، ط1، 2002، ص: 17-18.

(3)- الزمخشري : أساس البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، مادة (غرب).

(4)- سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 32.

2- لفظ الاغتراب بمعنى الغربة بين البشر ففعل (Alienare) يفيد معنى فتور علاقة ودية مع شخص آخر.

3- ترتبط كلمة الاغتراب بالغربة (Enttremung) وهذا الاصطلاح يعني التغريب. ولكن الاغتراب في نفس الوقت مقولة غير محدودة المعالم، يختلف معناها باختلاف استعمالاتها، فهناك الاغتراب بالمعنى الحقوقي⁽¹⁾، الذي يعد من بين أنواع الاغتراب التي ظهرت بين الناس وقد قصد به «تحويل أو نقل ملكية شيء ما، من شخص إلى آخر، أو جعل شيء ما منتميا إلى شخص آخر»⁽²⁾. وخلال عملية الانتقال التي تتم يصبح الشيء مغتربا عن مالكة الأول، إذ يدخل في حيازة المالك الجديد⁽³⁾.

فإذن الاغتراب بالمعنى الحقوقي يجعل الإنسان مغتربا إذا ما حصل الانتقال من مالكة الأصلي إلى مالك جديد.

«كما تعني في الطب الاضطراب العقلي الذي يجعل الإنسان غريبا عن ذاته ومجتمعه، أما في الفلسفة فتشير إلى غربة الإنسان عن جوهره»⁽⁴⁾.

وانطلاقا من هذه الأقوال نلاحظ أن استعمال الاغتراب تعدد لذلك نجد معناه يختلف في القانون والطب والأدب.

« هذا عن الاغتراب في اللغة الفرنسية والإنجليزية، أما فيما يخص اللغة الألمانية فقد استخدم مصطلح (verroussenug) للتعبير عن النقل القانوني للملكية من شخص إلى آخر، ولكن هذا النقل أو التغريب للملكية لم يكن نقلا قانونيا وإنما عن طريق السلب والسطو. واستعمل أيضا بمعنى الاختلال العقلي ولكنه اقتصر على حالات غياب الوعي وشلل الحواس»⁽⁵⁾.

كما نجد مفاهيم ودلالات مختلفة للفظ اغتراب تعبر عنها مختلف القواميس الإسبانية « وهي في مجملها مرتبطة بالانتقال المكاني والبعد عن الوطن، وكذا المرتبطة بعدم التوافق أو الانسجام مع اللحظة الآنية أو قيم المجتمع ففي قاموس الأكاديمية الملكية (Diccionario de la real academia) يذكر أن

(1)- سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، (د، ت)، ص: 98.

(2)- سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 32.

(3)- يحيى العبد الله: الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص: 22.

(4)- سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، ص: 98.

(5)- سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 33-34.

الغربة (exilio) هي البعد عن الوطن وأنَّ الغريب (exiliodo) هو المبعد عن وطنه لأسباب سياسية بشكل عام وكذلك من معانيها النَّفي عن الوطن والانفصال عن الأرض التي يعيش فيها الإنسان»⁽¹⁾. إنَّ جميع المعاني التي تعبر عن مصطلح الاغتراب تشترك في معنى واحد هو الانفصال والانسلاخ، لكن هذا الانفصال قد يكون عن شيء ما كالمملكية، وقد يكون عن الآخرين وعن المجتمع، وقد يكون عن الله⁽²⁾.

أمَّا اصطلاحاً فنجد مفهوم الاغتراب يحظى باهتمام كبير من طرف طوائف من العلماء متمثلة في الفقهاء المسلمين والشعراء والعلماء العرب منهم والأعاجم إذ عمدوا إلى شرحه وتحليله وتبيينه على أكمل وجه وذلك انطلاقاً من نظرة كل واحد منهم له، هذا ما يجعلنا نقف عند الكثير منهم لكي نلتبس تعريفاتهم وآراءهم وأول محطة نقف عندها لتعريف بهذا المصطلح هم علماء الدين. وفي هذا الصدد نلاحظ اهتمام فقهاء الإسلام به والحديث عنه وتوضيحه من وجهة نظر الدين الإسلامي، وقد شغل حيزاً كبيراً من تفكيرهم، فقسّموه إلى أنواع ودرجات هي الاغتراب عن الأوطان « وهو مشترك بين الناس جميعاً، فالناس كلهم في الدار الدنيا غرباء، لأنّها ليست لهم بدار مقام وليست الدار التي خلقوا لها، ولهذا وصف أحد شيوخ الإسلام هذا النوع من الاغتراب بأنه لا يحمّد ولا يذم وله فيه هذه الأبيات:

وحي على جنّات عدن فإنّها	منازلك الأولى وفيها المخيمّ
ولكننا سبي العدو، فهل ترى	نعود إلى أوطاننا ونسلم؟
وأي اغتراب فوق غربتنا التي	لها أضحت الأعداء فينا تحكّم؟
وقد زعموا أنّ الغريب إذا نأى	وشطت به أوطانه ليس ينعم
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة	من العمر إلا بعدما يتألم

وقد حضّ الدين الإسلامي النَّاس على أن يتخذوا الدُّنيا ممراً ولا يجعلوها مقراً ووطننا فهي دار فناء، أو دار انتقال إلى دار البقاء»⁽³⁾.

قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾⁽⁴⁾، فهذه الآية أكبر دليل على أنّ الدُّنيا ومن فيها فانون.

(1)- أشرف علي دعدور: الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة، ص: 19-20.

(2)- ينظر سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 34.

(3)- سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 23-24.

(4)- سورة غافر/ 39.

«وقال النبيّ (ص) لعبد الله بن عمر رضي الله عنه: [كن في الدّنيا كأنك غريب أو عابر سبيل] وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: " وأحذركم الدنيا فإنها مترل قلعة، وليست بدار نجعة قد تزينت بغرورها، وغرت بزينتها".

لكن الإمام الفقيه ابن رجب الحنبلي، يرى أنّ الناس في الدّار الدنيا قسمان قسم وقف مع الدنيا وزينتها واغتر بها وجهل معرفة الله وعظمتته وإجلاله وهؤلاء لا يشعرون بالاغتراب في الدنيا بل يستوحشون من ترك الدنيا وملذاتها والقسم الثاني آمن بالله حق الإيمان فاستأنس به وبذكره ومحبتة وهؤلاء يستوحشون من الدّنيا وشهواتها ويعيشون مشاعر الاغتراب عن الوطن الأم»⁽¹⁾.

وهكذا فإن هذا الصنف من المسلمين وأهل الدّين نظروا إلى أنّ الدنيا دار بلاء وزوال لا يحق للإنسان الوقوف عندها لأنها لا محالة سوف تزول وتناى عنه، « واغتراب الحال وهو بالمعنى الإسلامي الابتعاد أو الانفصال عن الحياة الاجتماعية الزائفة الجارفة، وعن الكثرة التي غرقت فيها ومفارقة شهوات الدّنيا وملذاتها وزخارفها وهوى النفس ومطامعها والتمسك بتعاليم الدّين الصّحيح ومحاربة البدع والشبهات التي دخلت الإسلام وليست منه في شيء »⁽²⁾.

« وقد وصف الرسول الكريم غربة أهل الإسلام في أحد أحاديثه: [بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء] ، وينطوي هذا القول على شيء من امتداح الغربة»⁽³⁾، وهو الأمر الذي جعل من قول الرسول مصدراً انطلق منه الكثير من علماء الدّين ورجالاته⁽⁴⁾، إضافة إلى اغتراب الهمة وهو « اغتراب العارفين، وقد عدّ أعلى درجات الاغتراب عند المسلمين، لأنّ الاغتراب الأول، اغتراب بالأبدان، والثاني اغتراب بالأفعال والأحوال وهذا اغتراب بالهمم، فالعارفون غرباء بين الخلق كلهم وهم المتصوفة، أصحاب المعرفة الذوقية الذين يعملون للاتصال بالله عن طريق معرفته ومحبتة، ومما تجدر ملاحظته أن هذا المغترب عن كل شيء سوى الله، لا يشعر باغترابه هذا ولا يستوحش منه بل على العكس من ذلك ينعم فيه بمتعة ما بعدها متعة وهذا ما يبينه قول "ابراهيم بن أدهم": " لو علم الملوك وأبناء الملوك، ما نحن فيه من السرور والنعيم ومن لذة العيش وقلة التعب، إذا لحاربونا على ما نحن فيه بأسيا فهم.

(1) سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 24.

(2) سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 30.

(3) صالح زامل: تحول المثال دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي، ص: 16.

(4) ينظر عمر بوقرورة: الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث، ص: 15.

وأنشد في ذلك يقول:

هجرت الخلق طراً في هواكا
فلو قطعتني في الحب إرباً
وأيتمت العيال لكي أراكا
لما حنّ الفؤاد إلى سواكا»⁽¹⁾.

كما نجد هذا المفهوم -إضافة إلى علماء الدين والمتصوفة - متجسداً عند أحد الأدباء والمفكرين العرب القدماء وهو أبو حيان التّوحيدي الذي لاشك أنه استمد آراءه عن الاغتراب من تجربته الشخصية ومعاناته في الحياة.

ويمكننا أن نقرأ المفهوم الشّامل للغربة عند أبي حيان التّوحيدي في كتابه "الإشارات الإلهية"، حيث نجد هذا المفهوم المادي والمعنوي لهذه الكلمة في قوله: « فأين أنت من غريب قد طالت غربته في وطنه وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه؟! وأين أنت من غريب لا سبيل له إلى الأوطان ولا طاقة به على الاستيطان؟! ».

ويقول أيضاً في موضوع آخر يحاول أن يعطينا صورة صادقة عن الغريب، فهو يمسك ريشته ويحاول رسم هذا الغريب لكي يعطي لنا صورة صادقة عن ملامحه ومسلكه في الحياة فهو يقول: الغريب من لبسته خرقة، وأكلته سلقة، وهجعت خفقة والغريب من غربت شمس جماله، واغترب عن حبيبه وعذاله وأغرب في أقواله وأفعاله وغرب في إدباره وإقباله، واستغرب في طمره وسرباله، يا هذا! الغريب من نطق وصفه بالحنة بعد المحنة... الغريب من إن حضر كان غائباً، وإن غاب كان حاضراً، الغريب من إن رأيته لم تعرفه، وإن لم تره لم تستعرفه»⁽²⁾.

ويصل اكتمال المفهوم عند التّوحيدي في قوله: « وأغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه، وأبعد البعداء من كان بعيداً في محلّ قربه»⁽³⁾.

وإضافة إلى علماء الدين والأدباء نجد علماء النفس يستعملون كثيرهم مصطلح الاغتراب محاولين بذلك تبين معانيه وذكر أسبابه وهذا ما نجده ماثلاً عند "أريك فروم" مثلاً، فهو يعرفه بأنه: « نمط من التجربة يعيش الإنسان فيها نفسه (بوصفه) شيئاً غريباً ويمكن القول أنه قد أصبح غريباً عن نفسه، أنه لا يعود يعيش نفسه باعتباره مركزاً للعالم ومحركاً لأفعاله، لكن أفعاله ونتائجها قد أصبحت سادته الذين يطيعهم أو الذين يعبدهم ».

(1) سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 30-31.

(2) حسن محمد حسن حمّاد: الاغتراب عند أبي حيان التّوحيدي، دراسة فلسفية من خلال الفكر الوجودي، مجلة فصول، القاهرة، العدد الثالث، خريف 1995، ص: 72.

(3) صالح زامل: تحوّل المثال دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي، ص: 19.

وهو يستخدم هذا الاصطلاح أولاً وقبل كل شيء لإيضاح الأنماط المختلفة من الانفصال أو الانقسام»⁽¹⁾.

ومن بين علماء النفس الذين طرقتوا هذا الباب وتناولوه بالتحليل والدراسة عالم النفس "كينيستون" « حيث يرى أن هناك أسباباً ذاتية وأسباباً موضوعية تؤدي إلى الاغتراب، ويرد الأسباب الذاتية إلى عوامل نفسية ديناميكية تحدث في نمو الفرد، أما الأسباب الموضوعية فهي الظروف المحيطة بالفرد، وما يكونها من عوامل حضارية وثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نشير إلى أن اغتراب المبدعين وهم نخبة مميزة في المجتمع ذات تكوين نفسي مميز أشد أثراً في حفر مسار الاغتراب حتى تصل إلى ذروتها المنشودة وتنجح في تكوين التيارات الفعالة التي تقود عمليات التغيير»⁽²⁾، والمقصود من هذا القول أن الاغتراب له أسباب ذاتية وأخرى موضوعية، والمبدعون أو المبتكرون في المجتمع تدفعهم العوامل الذاتية أكثر من عوامل أخرى. وقد بات الاغتراب قضية تناولها الفلاسفة والمفكرون بالتحليل وتعقبها بالبحث والاستقصاء⁽³⁾، لذلك نجده يشغل حيزاً كبيراً في كتبهم ودراساتهم.

« فقد استخدم مصطلح الاغتراب بشكل واسع في نظرية العقد الاجتماعي ويرى "جان جاك روسو" في كتابه "العقد الاجتماعي" أن قيام الفرد بتغريب سيادته على ذاته، وتسليم هذه السيادة إلى الجماعة هو شرط ضروري لوجود الجماعة وأن بنود العقد الاجتماعي يمكن اختصارها في بند واحد هو التغريب الكامل من قبل كل عضو مشارك في الجماعة، لكافة حقوقه والتنازل عن حريته الطبيعية، وبموجب هذه النظرية تغرب الحقوق الطبيعية للفرد عن هذا الفرد وتنتقل إلى الدولة ويغدو الإنسان الذي كان حراً مستقلاً تابعاً للدولة بل وعبداً لها»⁽⁴⁾.

أما الفيلسوف الألماني "هيغل" فقد ناقش مصطلح الاغتراب، فوصل به إلى ازدواجية دلالة المصطلح فهو يرى فيه معنيين، معنى ايجابي ومعنى سلبي⁽⁵⁾.

هذا عن الاغتراب عند هيغل، أما "ماركس" «فقد عد الاغتراب ظاهرة اجتماعية تظهر في سياق

العلاقات الاجتماعية في النسق الاجتماعي المحدد، وهو يميز ثلاثة أنواع من الاغتراب :

(1) صالح زامل: تحول المثال دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي، ص: 26.

(2) فاطمة حميد السويدي: الاغتراب في الشعر الأموي، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997، ص: (ت) من المدخل.

(3) ينظر محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العراقي، دراسة من منشورات اتحاد كتاب العرب، 1999، www.awu-dan.org

(4) سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 35..

(5) ينظر صبار نورالدين: الاغتراب بين القيمة المعرفية والقيمة الجمالية، مجلة الموقف الأدبي، www.awu-dan.org

اغتراب العمل: ويرى ماركس أن هذا النوع من الاغتراب هو الأرضية المشتركة لكل أشكال الاغتراب الأخرى.

واغتراب الناتج: إن اغتراب العمل يقود إلى اغتراب الناتج الذي يصبح غريبا عن منتجه حينما يقع تحت طائلة قوة غريبة ومعادية إنسانية أو غير إنسانية.

واغتراب الذات هذا النوع هو تحصيل حاصل من الاغترابين السابقين لأن عمل المرء وإنتاجه هما في حياته شكل متموضع، فإذا اغترب عنه العمل والناتج اغتربت ذاته.

إنّ الاغتراب لدى "ماركس" لصيق بالحياة ومن هنا كان اكتشاف جذور هذه الظاهرة عنده يرجع إلى بؤرة الوجود الاجتماعي الطبقي وهو الذي حوّل مصطلح الاغتراب إلى مصطلح علمي له دلالات (سوسيولوجية) وأبعاد واقعية وأنزله من عالم المثل إلى عالم الواقع الاجتماعي الحي⁽¹⁾، هذا عند الفلاسفة .

« أما عند الوجوديين فيمكن أن نجمل حديثنا عن الاغتراب عندهم في أنماط ثلاثة هي:

أولاً: الاغتراب عن العالم وعن الآخرين .

ثانياً: الاغتراب عن الذات .

ثالثاً: الاغتراب عن الله عند الوجودية المؤمنة، علماً أنّ أنواع الاغتراب هذه متداخلة فيما بينها في كتابات الوجوديين ومثبوتة في مجمل مؤلفاتهم⁽²⁾، فالوجوديون كغيرهم من الفلاسفة والمفكرين يؤمنون بالاغتراب ويجعلونه وفق ثلاثة أنواع، اغتراب عن الناس واغتراب عن النفس واغتراب عن الله .
« ويختصر "تيليش" الوجود بأن يقول: " الوجود الإنساني انفصال " وليس الوجود انفصالاً للفرد عن ذاته فحسب بل وعن الآخرين⁽³⁾ .

إذن بعد هذه الرحلة العاجلة في عالم الاغتراب والتي استوقفتنا عند حدوده ومعانيه من ناحية اللغة والاصطلاح ومن وجهات نظر مختلفة عربية وغير عربية .

نقول بأن: « الاغتراب كفكرة يقوم على أساس التمييز بين وجود الانسان وجوهره وعلى أن وجود الانسان بصورته التي نراه عليها في المجتمع لا يتفق مع جوهره أو ما هو من حقيقته وإنما هو يختلف عنها بل ويتعارض معها، فما هو كائن لا يتفق مع ما ينبغي أن يكون، والإنسان المغترب (alientedà) هو الإنسان الذي لا يحس بفاعليته ولا أهميته ولا وزنه في الحياة وإنما يشعر بأن (aliented)

(1) صالح زامل: تحول المثال دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي، ص: 25-26 .

(2) سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 50 .

(3) صالح زامل: تحول المثال، دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي، ص: 26 .

العالم (الطبيعة والحزن بل والذات) على عكس ذلك، غريب عنه»⁽¹⁾، من خلال هذا نستطيع أن نقول أن الإنسان المغترب يفقد قيمته ووزنه في المجتمع لذلك يحسّ بالغربة والانفصال والبعد « وهذا كله ناتج عن الظروف المادية والأسباب الشخصية والعامّة المؤدية إلى الغربة والمعاناة الدائمة»⁽²⁾، فمن دون شك الظروف المحيطة بالإنسان سواء كانت المادية أو المعنوية تؤثر فيه وتجعل معاناته بارزة وكذا تعمق إحساسه بشئى أنواعها.

2- أنواع الاغتراب:

إذا اعتبر مفهوم الاغتراب إشكالية كبيرة واجهت الدارسين في تحديد مفاهيمه وضبط زواياه وذلك بالنظر إلى الغموض الذي كان يكتنفه فإن أشكاله وأنواعه كانت أكثر منه غموضاً وتعقيداً « لأنه ليس هناك شيء يسمى بالاغتراب الشامل الذي يجمع سائر الأنواع معاً، وليس هناك شيء يسمى بالاغتراب (س) والاغتراب (و)، غير أن هناك أنواعاً من الاغتراب لا تعد ولا تحصى كانت موجودة ولا تزال موجودة وسوف تأتي إلى الوجود (بدون شك) مع استمرار المغامرة الإنسانية في السير في دروب الوجود المتعددة والمتباينة، ولعل علماء الاجتماع والفلاسفة الاجتماعيين يحسنون صنعا إذا وجهوا اهتمامهم إلى هذه الأنواع، وذلك لأنها تشتمل على العديد من أهم الامكانيات التي يمكن أن تظهر على طريق الدراما المستمرة للحياة والتجربة الإنسانية»⁽³⁾.

وأنا هنا سوف أحاول قدر الإمكان التعرض إلى أهم الأنواع وأكثرها انتشاراً لدى الشعراء لتبيين مداها وخصوصياتها وأول نوع أتطرق إليه هو:

الاغتراب الاجتماعي: « الذي يعني باختصار شعور الفرد بالانفصال عن جانب أو أكثر من جوانب المجتمع، كالشعور بالانفصال عن الآخرين، أو عن القيم والأعراف والعادات السائدة في المجتمع، أو عن السلطة السياسية الحاكمة، إضافة إلى ما يصحب ذلك من إحساس بالألم والحسرة، أو بالتشاؤم واليأس وما يرافقه أحيانا من سخط أو تمرد أو نقمة أو ثورة...»⁽⁴⁾، فهذا النوع من الاغتراب منتشر بكثرة بين الناس فهناك من يغترب ويفصل عن الناس، وهناك من يفصل عن العادات المكتسبة، كما نجد من يشعر بالغربة من الحكام وسياساتهم.

(1) - عزّت حجازي: الشباب العربي ومشكلاته، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1985، ع6، ص: 72 .

(2) - عزيز السيد جاسم: الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضى، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص: 11 .

(3) - ريتشارد شاخت: مستقبل الاغتراب مع دراسة بعنوان المشروع الفلسفي عند ريتشارد شاخت، ترجمة وهيبه طلعت أبو العلا ، منشأة المعارف،

(د، ط، د، ت)، ص: 59 .

(4) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 151 .

فها هو « شاخت يعزو انعزال الفرد اجتماعيا إلى كونه شخصا خلاقا، فرما بحكم كنهه كذلك شخص غير متوافق، يضع التقاليد موضع التساؤل أو يخرج عنها، وكلما كانت أصالته أكثر عمقا، ازداد عمق اظطراره للاغتراب عن مجتمعه»⁽¹⁾

وثاني نوع هو: « الاغتراب الروحي ويرتبط ظهور هذا النوع من الغربة بوجود الدين في أي مكان وزمان، في المشرق كما في المغرب، فشعراء الزهد والتصوف يتأثرون ببعض المفاهيم الدينية التي تمون كثيرا من شأن الدنيا ومتعها الفانية، ومرور الانسان بها كأنه غريب أو عابر سبيل فكثيرا ما عبروا عن زهدهم في هذه الدنيا وعن متاعها الزائل واجتنابهم للناس واعتزالهم الحياة وكل ما يتصل بها متوجهين _ في الوقت نفسه _ إلى الله وإلى العالم الآخر، ساعين دوما إلى خلاص الروح من هذا العالم الأرضي لتصل إلى عالمها العلوي، ولا شك أن الوصول إلى هذا الفهم أو التصور مر بمراحل وصل فيها مفهوم الزهد بصورته البسيطة إلى هذا المعنى الخاص لدى الصوفية عن غربة الروح في الجسد بل في هذا العالم»⁽²⁾، فالاغتراب الروحي يعتبر كغيره من الأنواع الأخرى للاغتراب التي عانى منها الانسان، والمغترب في ظلّه يشعر بالانفصال عن الدنيا ومتاعها، فهو كعابر السبيل بها لا يتوقف عندها وإنما يمر عنها ليصل إلى مكانه وعالمه الأصلي.

أمّا الاغتراب الاقتصادي، فمفهومه ظهر « منذ أن بدأ الرومان القدماء في استعمال الكلمة اللاتينية (alienatio) للدلالة على فعل تحويل ملكية شيء إلى شخص آخر أو إلى هيئة أخرى، كما كان متداولاً أيضا في اللغات الإنجليزية والألمانية والرومانية منذ العصور الوسطى، كما يكشف عن ذلك أي قاموس يتعلق بتاريخ أي لغة من هذه اللغات .

أمّا بالنسبة لظاهرة الاغتراب الاقتصادي فيمكن القول إننا فسرناها في ضوء التعريف الذي جرى عليه العرف، فلا بد أن نقرّ أنها قديمة قدم المؤسسات الإنسانية الخاصة بالملكية والتبادل الاقتصادي»⁽³⁾. وعلى اعتبار أن "ماركس" يعدّ المنظر الأكثر شمولية في حديثه عن الاغتراب الاقتصادي فإننا سوف ندرج رأيه حول هذا النوع من الاغتراب .

إذ « ينظر "ماركس" للاغتراب باعتباره العملية التي يفقد الفرد خلالها قدرته على التعبير عن ذاته التي تحولت وصارت تبدو متمثلة في استغلال إنتاج العمال بواسطة الرأسمالي، فعند الأخذ بتقسيم العمل كما يقول "ماركس" يغدو لكل امرئ مجال محدد ومغلق لتقييم العمل مفروض عليه ولا منجاة له منه

(1) يحيى العبد الله: الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، ص: 25 .

(2) أشرف علي الدعدور: الغربة في الشعر الأندلسي، ص: 45 .

(3) ريتشارد شاخت: مستقبل الاغتراب دراسة بعنوان المشروع الفلسفي عند ريتشارد شاخت، ترجمة وهيبة طلعت، أبو العلا، ص: 61 .

فيصبح صائدا للحيوانات أو للأسماك أو راعيا ويتعين أن يظل كذلك إذا لم يشأ أن يفقد وسائل كسب معيشتة»⁽¹⁾، وبالنسبة إلى الاغتراب الذاتي: « فإن الموطن الأصلي له يكمن في تراث الفكر الحديث الذي اتخذ من نوعيه الحياة الإنسانية موضوعه الأساسي، ولقد كان "هيغل" و"ماركس" و "نيتشه" من بين الذين قدموا إسهامات رئيسية للمناقشات التي دارت حول هذا الموضوع والتي شاعت في القرن الماضي وامتدت إلى هذا القرن على غرار ما نجد من التطورات التي جاءت بها الفلسفة الوجودية والنظرية الاجتماعية النقدية لمدرسة فرانكفورت»⁽²⁾.

فاغتراب الذات إذن «ينشأ عن التناقض بين الإنسان وبين العالم الخارجي، بين الواقع والخيال، بين ما هو عليه وبين ما يحلم به، بين ما يملكه وبين ما يطمح إليه، بين نظام العالم ونظام تفكيره، بين عالم الآخرين وعالمه الخاص، فينفصل المرء عن ذاته الإنسانية الحقة أو عن طبيعته الجوهرية، وبهذا المعنى يحمل ذلك التعبير فكرة الفقد الكلي لإنسانية الإنسان»⁽³⁾.

كما نجد الاغتراب الزمني « (temporal alienation) الذي يعد من الأمور الغامضة، لأن الارتباط بين الإنسان والزمن أكثر غموضا من الارتباط بينه وبين المكان، فالمكان ثابت نسبيا، أما الزمان فمتغير وبالتالي فتأثيره النفسي على الانسان أكثر غموضا أيضا، فالإنسان قد يشاهد شيئا معينا أو يحس بإحدى الحواس الخمس أو بأكثر من حاسة واحدة، بينما يحتاج الإحساس بالزمن إلى الحاسة الفكرية أو الذهنية»⁽⁴⁾.

إذن كانت هذه هي جل الأنواع والأشكال التي عرفها الاغتراب على ممر العصور إضافة إلى أنواع أخرى لم تدرج في البحث نظرا لقلّة أهميتها أو لعدم تداولها وتناولها من طرف الباحثين في كتبهم من مثل الاغتراب الجسدي، والجنسي، والاعتراب الوجودي، واللغوي وغيرهم من الأنواع .
فهاته الأنواع المذكورة وغيرها سوف نحاول قدر الإمكان تبينها وتفصيلها بالدراسة والتحليل – إن وجدت كلّها – عند علم من أعلام الأدب العربي عانى من أنواع شتى من الاغتراب – كما سوف نذكرها استنادا إلى أهميتها وشيوعها في شعره – ألا وهو أبو العلاء المعري الشاعر الفذ الذي سحر الناس بملكته وعلمه، ولكن قبل أن نتطرق إلى هذه الأنواع عنده يجب علينا أن نعرض إلى جذور الاغتراب في الشعر العربي .

(1) يحيى العبد الله: الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، ص: 25- 26 .

(2) ريتشارد شاخت: مستقبل الاغتراب، دراسة بعنوان المشروع الفلسفي عند ريتشارد شاخت، ترجمة وهيبة طلعت أبو العلا، ص: 239، 237 .

(3) غسان السيد: الاغتراب في أدب زكريا تامر، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع 352، سبتمبر 2003، www.awu. Dam.org

(4) يحيى العبد الله: الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، ص: 28 .

3- جذور الاغتراب في الشعر العربي القديم:

يتبادر الى ذهن الإنسان منذ البداية بعد سماعه لمصطلح الاغتراب أنه مصطلح حديث مرتبط بالعصور الحديثة و الحقيقة أنه قديم « قدم الإنسان في هذا الوجود، فمنذ أن تكونت المجتمعات الأولى نشأت معها وفي ظلها الأزمات التي كانت تتمخض بشكل أو بآخر عن أنواع من الاغتراب عانى منها الفرد وواجهها على وفق حجم طاقاته العادية والروحية، فقد تقوده إلى التمرد والعصيان، مثلما قد تفضي به إلى الاستسلام والانعزال والانكفاء على الذات»⁽¹⁾.

وإذا رجعنا إلى الشعر العربي القديم يمكننا أن نعثر على بدايات وبواكير للاغتراب وذلك منذ العصر الجاهلي، « ولو رجعنا إلى حياة الإنسان الجاهلي لوجدنا أنها رحلة لا تهدأ وراء الكأ والماء وانتقال من ماء إلى ماء، وتتبع لمساقط الغيث حيث كان، فالهجرة والتنقل تأتي وفقاً لضرورة عسية على إرادة الإنسان الجاهلي وهو لا يملك له دفعاً»⁽²⁾، فالهجرة والتنقل من مكان إلى آخر بحثاً عن الماء جعل الإنسان يحسّ بالغربة وهو ينأى عن مكانه الأصلي إلى مكان آخر غريب عنه، « ويظل الاغتراب احدى وسائل الكشف عن دقائق حياة الجاهلي وتفصيلها واحدى صور الغوص وراء معطيات عالمه الخاص، وقد حدا به إلى ضرب من الانطواء بالمعنى النفسي أو عكس ذلك من الرغبة الجامحة في تجاوز القيم والانفتاح على مادة الواقع، وإن تعددت صور هذا التجاوز، أو غير ذلك من مواقف تحكيها لحظات الإحساس بالفقد والحرم، أو معايشة عالم الضياع، أو الوقوف عند منطقة الاستسلام والانهزام البشري إلى غير ذلك من أبعاد تحكيها قصة شاعر المعلقة عبر صراعه الطويل، مع عالمه الواقعي والشعري بصفة خاصة»⁽³⁾.

على نحو ما تحكيه لنا لوحة الطلل مثلا في كثير من معلقات الشعراء "كزهير بن أبي سلمى" و"البيد بن ربيعة" وغيرهما من شعراء المعلقات.

مثلا هذا الأخير "البيد" يتوقف في معلقته عند مشاهد الذكرى الطللية، فيقول:

عفت الديار محلها فمقامها	بمى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عريّ رسمها	خلقا كما ضمن الوحي سلامها
دمن تجرم بعد عهد أنيسها	حجج خلون حلالها وحرامها

(1) محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر www.awn.dam.org

(2) سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 69 .

(3) مي يوسف خليف: ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (د، ط، د، ت)، ص: 15-16.

رُزقت مرا بيع النجوم، وصابها وذق الرواعد جودها فرها مها⁽¹⁾.

إلى آخر المعلقة، فهو هنا في حديثه عن الأطلال يذكر أماكنها وما أصابها بعد رحيل الأحبة، وما مر بها من الأحداث بتنسيق جميل وتسلسل لا يعرف التفكك والضعف .
« فالاغتراب في شعر الأطلال كامن في ظاهرة الغياب والفقدان، فقدان الوطن، منازل القبيلة، فقدان الأهل و الحبيبة، فقدان الماضي السعيد والحياة الخصبة الممتعة .

و"لامرئ القيس" تجربة خاصة في الاغتراب عن الديار والوطن فقد أمضى شطرا كبيرا من حياته، شريدا هائما على وجهه بعدما أنكر عليه أبوه قول الشعر وخرج مغضوباً عليه يقول:

تذكرت أهلي الصالحين وقد أتت على حملي خوص الركاب وأوجرا

فلما بدت حوران في الآل دونها نظرت فلم تنظر بعينيك منظرنا

تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيرزا⁽²⁾

فهو هنا يبحث عن عينه للأخذ بثأر أبيه لاسترجاع ملكه الضائع، فذهب إلى ملك الروم لتحقيق غايته، لكن إحساسه بالغرابة كان مؤلماً منذ بدأ رحلته وفارق أهله وبلاده .

« ويمثل لنا "عنترة العبسي" لوناً آخر من ألوان الاغتراب في العصر الجاهلي وهو الاغتراب العنصري أو العرقي، فقد تنكرت له قبيلته بما في ذلك أبوه وعمه وأذاقوه صنوف العذاب والإهانة بسبب سواد لونه وعبوديته، فما أشد إحساسه بالهوان والضياع وما أقسى شعوره بالمرارة في قوله:

المال مالكم والعبد عبدكم فهل عذابك عني اليوم مصروف⁽³⁾»

ونلمح ألواناً أخرى من الاغتراب في الشعر الجاهلي، كالاغتراب عن المجتمع وقيمه فهو واضح عند الكثير من الشعراء أمثال "طرفه بن العبد" مثلاً الذي عاش ظروفاً قاسية في حياته وهذا ما أدى به إلى الشعور بالاغتراب وهذا ما نستشفه في قوله:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة عليّ المرء من وقع الحسام المهند⁽⁴⁾.

فقلقه مع عزة نفسه دفعاه إلى التمرد والثورة على هذا المجتمع .

(1) حسن جعفر نور الدين: ليبد بن ربيعة العامري - حياته وشعره - دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1990، ص: 115 .

(2) سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 80-81، وامرؤ القيس: الديوان ، ضبطه وصححه مصطفى عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، (د، ط، د، ت)، ص: 62.

(3) محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العراقي ، www.awn.dam.org

(4) الزوزني: شرح المعلقات العشر، دار الفكر، بيروت، لبنان ، ط1، 2005، ص: 23.

«وظهر الاغتراب عن المجتمع جليا عند فئة من شعراء الجاهلية هي فئة الشعراء الصعاليك الذين يمكن أن نميز فيهم مجموعتين: مجموعة فرض عليها هذا الاغتراب وتتألف من الشعراء الخلعاء الذين نبذتهم قبائلهم وطردهم من حماها، وقطعت كل صلة بينهم وبينها بسبب تصرفاتهم التي تخالف منطق القبيلة وقوانينها.

ومما لاشك فيه أن اغتراب هذه الطائفة كان نتيجة دوافع اجتماعية وسياسية واقتصادية وجغرافية.

ولكن ومهما كانت الأسباب المؤدية إلى اغتراب الصعاليك وسواء كان اغترابهم مفروضا أم اختياريا فقد جمع بينهم على اختلاف قبائلهم الفقر والجوع والتشرد⁽¹⁾، فعن الفقر الذي عانى منه الكثير من الناس قال أحدهم: »

ذريني للغنى أسعي، فإنني
فسر في بلاد الله والتمس الغنى
وأيت الناس شرهم الفقير
تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا
ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا
من المال يطرح نفسه كل مطرح

وهذا الفقر الذي استبد بحياة الصعاليك حمل لهم في ركابه الجوع، نتيجة طبيعية له، ولعل الجوع أقسى ما يحمله الفقر إلى جسد الفقير. فقد كثر الحديث عنه في أخبار الصعاليك وشعرهم، فهاهو السليك بن سلكه يحدثنا عن بعض شعره كيف كان يغمي عليه من الجوع في شهور الصيف حتى يشرف عليه الموت والهلاك:

وما نلتها حتى تصعلكت حقبه
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضربي
وكدت لأسباب المنية أعرف
إذا قمت تغشاني ظلال فأسدف⁽²⁾

هناك بالإضافة إلى هاته الفئة من الصعاليك التي هجرت المجتمع القبلي فئة أخرى اغتربت عن العالم الإنساني كله فهجرت مجتمع الإنسان إلى الصحراء البعيدة حيث الوحوش والحيوانات المختلفة فصاحت هذه الوحوش وأنست بها يقول "تأبط شرا" واصفا نفسه لامرأة يريد خطبتها:

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه
رأين فتى لا صيد وحش يهमे
ويصبح لا يحمى لها مرتعا
فلو صافحت إنسا لصافحنه معا⁽³⁾

فهو قد عايش الوحوش طويلا وسالمها ولهذا اطمأنت له وألفته، حتى لتوشك أن تصافحه.

(1) سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 84، 89.

(2) يوسف خليف: شعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية، ط3، (د، ت)، ص: 29-30.

(3) سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 84، 89.

«وهو يفتخر في قافيته المشهورة بكرمه وتشرده، ويتوعد عاذليه إن لم يكفوا عن عدله بترك دياره والمضي متشردا هائما إلى حيث لم يعرف مكانه مهما كان:

إني زعيم لمن لم تتركوا عدلي أن يسأل الحي عني أهل آفاق
أن يسأل القوم عني أهل معرفة فلا يخبرهم عن ثابت لاق»⁽¹⁾.

أما "الشنفري" فنجده يقول عن وحوش الفلاة:

«هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل

ومعناه هؤلاء هم الأهل الذين يؤتمنون علي السر ويدافعون عن جرائم المذنب. فالشنفري تحمل إهانة أهابت بنفسه العزيزة أن تترك الأهل وتضرب في الصحراء مع الوحوش وأن تنفث همها في قصيدة عرفت بلامية العرب أعربت فيها عن عتاب أليم تضمن فخرا ووصفا للبراري»⁽²⁾.

فبالإضافة إلى هذه الصور هناك صور أخرى كثيرة موجودة في الشعر الجاهلي لا يتسع لنا المجال لذكرها كلها جملة واحدة، فقد اقتصرنا فقط على الأهم والشائع منها وعند أهم وأبرز شعرائها، ثم جاء بعد العصر الجاهلي عصر صدر الإسلام، فدلّت كلمة هذا الأخير؛ أي الإسلام على معنى الخضوع والانقياد والاستسلام، وقد تردد هذا المعنى في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾⁽³⁾، فهو دين جاء ليكمل الديانات السماوية السابقة.

وقد أطلقت كلمة الإسلام على الرسالة التي جاء بها محمد رسول الله الكريم لنشر تعاليمها حتى يبين لهم طريق الهداية وسبيل الرشاد والصلاح وقد أرسى الإسلام القواعد الإجتماعية للعرب فجعلهم يعيشون في أمة بعد ما كانوا يتوزعون في قبائل تعتمد على العصبية، فأصبحت القبائل ترتبط بعضها البعض بروابط دينية، واختفت العادات التي كانت سائدة في الجاهلية شيئا فشيئا كالأخذ بالثأر والانتقام وكذا الفوارق القبلية والطبقية والجنسية في المجتمع، فأصبح الناس سواسية في ظل الإسلام، وأصبح الفرد لا يعيش لنفسه بل للجماعة التي يفديها بروحه وماله، ويحس كل واحد منهم بمشاعر أخيه كشعور الغني

(1) يوسف خليف : شعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ص: 241.

(2) حنا الفاخوري :منتخبات الأدب العربي ، ص: 09 - 10.

(3) سورة الزمر / 54.

بحالة الفقير، حيث يقدم له المساعدة عن طريق الزكاة التي تعتبر فرضاً، وبذلك تشكلت العدالة الإجتماعية في المجتمع المسلم.

فإذن الإسلام هو دين سلام وطمأنينة للبشرية، وعلى هذا الاعتبار، حاول الفاتحون نشر تعاليمه للبشرية جمعاء حتى يستفيد منه العربي وغير العربي.

فعدت بذلك الجيوش الإسلامية ونظمت لتبعث إلى مختلف الاتجاهات لنشر الدين الجديد، « فقد أقام الجنود في تلك البلدان البعيدة، تجمعوا في معسكرات فرأوا مناطق تختلف في جوها وطبيعتها، ومظاهر حياتها اختلافاً بينا عما عهدوا في جزيرتهم ولم يستطع العرب في بادئ الأمر الاندماج في تلك الحياة فعاشوا هناك بأجسامهم، أما أرواحهم ومشاعرهم فبقيت في وطنهم ومع أهليهم الذين قضى عليهم أن يبتعدوا عنهم ويفارقوهم، وقد عبر الشعراء الذين شاركوا في الفتوحات عن تلك الأحاسيس بأشعار تعد من أصدق ألوان الشعر وأشدّها تأثيراً في النفس»⁽¹⁾.

وبذلك كان « الفتح الإسلامي بداية التغرب الحقيقي عن أرض الجزيرة العربية بشكل كبير ومنظم»⁽²⁾ فنتجت عن هذا التغرب تلك الأشعار التي تعبر عن أحاسيس وأشواق الفاتحين إلى أهليهم وأوطانهم وهذا ما يظهر في قول أحدهم يشكو غربته إلى قمرية حزينة مثله:

أقمرية الوادي التي خان إلفها من الدهر أحداث أتت وخطوب

تعالى أطارحك البكاء فإننا كلانا بمرور الشاهجان غريب⁽³⁾.

فهذا الشاعر الغريب وجد نفسه في موقف مقارب من موقفها؛ أي أن هذه القمرية هي بمتزلة معادل موضوعي لهذا الشاعر المغترب، فقد ذكرته في وحدتها ونواحيها وبما يشعر به .

وكان إحساس الشاعر بالاغتراب والوحشة يزداد حين يستشعر خطراً يهدد حياته أو يشعر بخطر

الموت، وهذا ما نتبينه في شعر "مالك بن الربيع" حين حضرته الموت وهو مغترب عن بلده بخراسان:

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا

فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه وليت الغضى ماشى الركاب لياليا

لقد كان في أهل الغضى لو دنا الغضى مزار ولكن الغضى ليس دانيا

ألم ترني بعث الضلالة بالهدى وأصبحت في أرض الأعادي بعيدا

وأصبحت في أرض الأعادي بعيدا وأصبحت في أرض الأعادي قاصيا

(1) سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 81-82.

(2) فاطمة حميد السويدي: الاغتراب في الشعر الأموي، ص: 21.

(3) سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 81-82.

بذي الطيسين فالتفت ورائيا
تقنعت منها أن ألام ردائيا
جزى الله عمرا خير ما كان جازيا
وإن قل مالي طالبا ما ورائيا
سفارك هذا تاركي لا أباليا

دعاني الهوى من أهل أود وصحبي
أجبت الهوى لما دعاني بزفرة
أقول وقد حالت قرى الكرد دوننا
إن الله يرجعني من الغزو لا أرى
تقول ابنتي لما رأت طول رحلتي

يقر بعيني أن سهيل بداليا
براية أي مقيم لياليا
وردًا على عيني فضل ردائيا

أقول لأصحابي ارفعوني فإنه
فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا
وخطا بأطراف الأسننة مضجعي

من الأرض ذات القرض أن توسعاليا
فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
يد الدهر معروفًا بأن لا تدانيا
به من عيون المونسات مراعيًا⁽¹⁾

ولا تحسداني بارك الله فيكما
خذاني فجراني بثوبي إليكما
بعيد غريب الدار ثاو بقفرة
أقبل طرفي حول رحلي فلا أرى

إلى آخر القصيدة، فالقصيدة طويلة تحوي حوالي ثمانية وخمسين بيتا يحكي فيها الشاعر عن غربته عن بلاده وإحساسه بمجيء ساعة الوفاة وهو بعيد عن وطنه مما أثار فيه مشاعر الوحشة والاعتراب. والجدير بالذكر أن الاعتراب في الفتوحات لا يعكس البعد عن القبيلة ومضارها بل هو بعد عن الجزيرة العربية ككل، وعن ناسها وطبيعتها ومناخها ونمط العيش فيها، فلنسمع إلى أحد الفاتحين يستبد به الشوق إلى أرض الحجاز وبالضبط إلى (نجد) فتتحدث دموعه بتذكرها فهو يقول:

إليه وإن لم يدرك الطرف أنظر⁽²⁾
إذا مطرت عود ومسك وعنبر
خيام بنجد دونها الطرف يقصر
بعينك مجرى مائها يتحدر
بحرب وإما نازح يتذكر

أكرر طرفي نحو نجد وإتني
حيننا إلى أرض كأن تراهما
أحن إلى أرض الحجاز وحاجتي
أفي كل يوم نظرة ثم عبرة
متى يستريح القلب إماما مجاو

(1)-البغدادي: خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، المطبعة الميرية ببولاق، ط1، (د، ت)، ج1، ص: 317، 319.

(2)- سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 83-84.

وفي نفس السياق نجد ذلك الشاعر الذي كان يتمنى رؤية نجد فيقول :

فليت عيني ترى إذا نظرت نجدا وقد أينعت حدائقها⁽¹⁾

فشوقه وحنينه لـ(نجد) جعله يتمنى رؤيتها والمناظر الموجودة فيها.

« ويضيق شاعر آخر بغربته في أرض تختلف في طبيعتها ومناخها عن (نجد) وبين أناس غرباء لا يتكلمون لغته، فيتشوق إلى تراب (نجد) وإلى برودة رياحها، وكل شيء فيها، ولكنه شوق فيه كآبة غريبة وحسرة ويأس

ولا أيها البرق الذي بات يرتقي ويجلو دجى الظلماء ذكرتني نجدا
وهي جتني من أذرعاع وما رأى بنجد على ذي حاجة طربا بعدا
لم ترى أن الليل يقصر طوله بنجد وتزداد الرياح به بردا⁽²⁾

وهكذا فإن الفتوحات الإسلامية التي ظهرت في عصر صدر الإسلام كان لها الأثر الكبير على شعر هؤلاء الشعراء الذين عانوا مرارة الفرقة والحزن على أهلهم وأوطانهم، فكان لهم هذا الشعر الوجداني الرقيق الذي تنسكب فيه أعماق المشاعر العاطفية وأصدقها وأشدّها حرارة.

لقد رأيت فيما سبق، كيف أن الاغتراب ظهر لدى الإنسان منذ العصر الجاهلي مروراً إلى عصر صدر الإسلام، الذي كان بمثابة أرضية خصبة لما آل إليه الاغتراب بعد، وبالذات في العصر الأموي والذي سوف نشعر في تبين جل محاولات الاغتراب فيه، وتبيين الظروف المحيطة به وأهم العوامل المساعدة عليه لدى أغلب الشعراء.

« فقد تغير الوضع في العصر الأموي، حيث نشأ في مناطق الفتوحات الإسلامية كالشام ومصر والعراق وبلاد الري وخراسان وغيرها، جيل جديد من العرب لم يعد يرى نفسه غريباً بل اعتبر تلك البلاد بلاده فتأثر بحضارتها واستطاع أن يندمج مع سكانها الأصليين وأن يتلاءم مع نمط الحياة فيها، وبذلك تبدلت حياة العرب هناك سواء منهم الجند أم الولاة وأسيرهم وأتباعهم من حياة بدوية بسيطة إلى حياة مليئة بالترف، تقلصت فيها تدريجياً القيم البدوية لتحل مكانها القيم الحضارية، أمّا البادية فقد ظلت محافظة على أسلوبها في الحياة ولهذا بقي أهلها يشعرون بالضيق والغربة، إذا ما اضطرتهم الظروف إلى الابتعاد عنها ومهما بلغ بهم التنقل والترحال ومهما أصابوا في غربتهم من تكريم ومثلة رفيعة، فقد عرفوا بالحنين الدائم إليها وإلى نمط الحياة فيها، فهم يرون أن في الغربة كربة ومذلة⁽³⁾ .

(1) - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص: 854، www.al-mostafa.com

(2) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 83-84، وياقوت الحموي: معجم البلدان، ص: 123.

(3) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 84-85.

ومن أصدق الأشعار التي تعبر وتوضح ما ذهبنا إليه تلك الأبيات التي قالتها "أم حسام" لما تزوجت "بعبد الله بن إسحاق الجعفري" فنقلت من البادية إلى المدينة، فظلت بذلك تقارن بين المكانين وتشتاق للمكان الأول - البادية - فهي تقول:

أقول لأدنى صاحبي أسرّة
وللعين دمع يجدر الكحل ساكبه
لعمري لنهي باللوى نازح القذى
نقي النواحي غير طرف مشاربه
بأجرع مراع كأن رياحه
سحاب من الكافور والمسك شائبه
أحبّ إلينا من صهاريج ملئت
للعب فلم تملح لديّ ملاعبه
فيا حبذا نجد وطيب ترابه
إذا هضبتّه بالعيش هواضبه⁽¹⁾

ومما لا شك فيه أنها وجدت عوامل عديدة ساهمت في خلق الاغتراب في ذلك العصر⁽²⁾ « كالعامل الاقتصادي - مثلاً - ، حيث انطلق الشعراء للتعبير عن اغترابهم الناتج عن الأسباب الاقتصادية ولكن بطريقة إيجابية، فإذا كان المغترب سلبياً يعاني من العجز وانعدام القوة وفقدان المعايير والعزلة فإنّ بعض الشعراء في هذا العصر استطاعوا مواجهة الواقع عن طريق الرحلة إلى الخليفة وأولي الأمر برسم صورة حقيقية للواقع السيئ ، الذي يعاني منه رعيّتهم يقول "جرير":

ألا هل للخليفة في نزار
وتدعوك الأرامل واليتامى
فقد أمسوا وأكثرهم كلول
وتشكو الماشيات إليك جهدا
ومن أمسى وليس به خويل
وأكثر زادهن وهنّ سفّع
ولا صعب لهنّ ولا ذلول
حطام الجلد والعصب المليل

وعلى الرغم من أنّ الشاعر كان من شعراء البلاط الأموي إلا أنه اکتوى بنار التجربة وعانى من الاغتراب الاقتصادي الذي دفع به دفعا شديدا إلى اتخاذ الرحلة وسيلة ونمطا يعالج به اغترابه وكان أن قصد الخليفة "سليمان بن عبد الملك" ليصف له تجربته الخاصة والمعاناة العامة التي اجتاحت المسلمين:

أشكو إليك فأشكني ذرية
لا يشبعون وأمهم لا تشبع
كثروا عليّ فما يموت كبيرهم
حتى الحساب ولا الصغير الموضع
وإذا نظرت يربيني من أمهم
عين مهجّجة وخذّ أسفّع
وإذا تقسمت العيال غبوقها
كثر الأنين وفاض منها المدمع⁽³⁾

(1) ينظر فاطمة حميد السويدي: الاغتراب في الشعر الأموي، ص 17.

(2) ينظر: سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 84-85.

(3) فاطمة حميد السويدي: الاغتراب في الشعر الأموي، ص: 05-06.

ونجد "الفرزدق" أيضا يكتوي بنفس التجربة، حيث تدفعه الظروف الاقتصادية القاهرة إلى الرحيل يقول :

وساقنا من قسا يُزجي ركائبنا
وجائحات ثلاث ما تركن لنا
ثنتان لم تتركا لحما، وحاطمة
فقلت: كيف بأهلي حين عضّ بهم
عام أتى قبله عامان ما تركا
تقول لما رأني، وهي طيبة
كأني طالب قوما بجائحة
أصدر همومك لا يقتلك واردها
لما تفرق همّي جمعت له

إليك منتجع الحاجات والقدر
مالا به بعدهن الغيث يُنتظر
بالعظم حمراء حتى اجتاحت الغرر
عام له كل مال معنق جُزر
مالا ولا بل عودا فيهما مطر
على الفراش وفيها الدل والخفأر
كضربة الفتك لا تبقي ولا تذر
فكل واردة لها صدر
صريمة لم يكن في عزمها خور⁽¹⁾

« وإذا كانت الظروف الاقتصادية القاسية دافعا ملحا لاتخاذ الرحلة وسيلة لتبديد الشعور بالاغتراب الناتج عن القهر الاقتصادي، فإن النمط الاغترابي يختلف عند بعض الشعراء الذين اتخذوا من الرحلة وسيلة للكسب المادي وتحقيق المكانة الاجتماعية المتميزة، غير أن المقام يطول بهم والشوق يزداد في النفس والقلب، وتظهر ألقاظ البكاء والحنين والاشتياق كبديل يحل محل العلاقة المفتقدة وتظهر صيغ الاستفهام لتوحي بمدى الإلحاح في العودة إلى الأهل والوطن:

متى راكب من أهل مصر وأهله بمكة من مصر العشية راجع

إلى جانب العامل الاقتصادي هناك العوامل الاجتماعية، والتي من أهم أسباب ظهور الاغتراب فيها هو النبذ والرفض⁽²⁾ ويكون النبذ والرفض للناس في المجتمع وكذا مختلف العادات المتوارثة والمكتسبة فيه؛ فالاغتراب على إثره هو « شعور عام يشعر به الأقليات في المجتمعات العنصرية أو العرقية، ويكون الاغتراب من أنواع النفي أو الطرد من عالم الأهداف والدفء العاطفي والمغزى الاجتماعي⁽³⁾ ».

(1) علي فاعور: ديوان الفرزدق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ط، د، ت)، ص: 164-165.

(2) فاطمة حميد السويدي: الاغتراب في الشعر الأموي، ص: 08.

(3) قيس النوري: الاغتراب اصطلاحا ومفهوما، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع الأول، 1979، ص: 33.

وإذا كان الاغتراب هو وعي الفرد بالصراع القائم بين ذاته والبيئة المحيطة به ، بصورة تتجسد في الشعور بعدم الانتماء لهذا الواقع وتزايد القلق فإن ذلك يتحقق في قول "طريح بن اسماعيل الثقفي" وتجربته مع "الوليد بن يزيد بن عبد الملك" فيقول :

مالي أحلا عن حياضك مفردا يرد الظّماء فيشربون وأُقدع⁽¹⁾

وتتعمق تجربته في القصيدة التي يوجهها إلى "الوليد بن يزيد" مصورا فيها مشاعره المفعمة بالحزن والألم الناتج عن الرفض المستمر لذاته يقول:

يا بن الخلائف مالي بعد تقربة إليك أقصى وفي حاليك لي عجب
مالي أزداد وأقصى حين أقصدكم كما تُوقِّي من ذي العرّة الجرب
كأنني لم يكن بيني وبينكم إلّ ولا خلة ترعى ولا نسب
لو كان بالود يُدني منك أزلفني بقربك الود والإشفاق والحذب
وكنت دون رجال قد جعلتهم دوني، إذا ما رأوني مقبلا قطبوا⁽²⁾

لقد تحولت رحلته التي كانت رحلة اختيارية إلى بؤرة تتجمع فيها كل مشاعر الانفصال والاعتراب عن مجتمعه الجديد يقول:

فلا أراني يا خلاصي وتنقيتي لك الشناء وقربي منك أقرب
قد كنت أحسبني غير الغريب فقد أصبحت أعلن أنني اليوم مغترب⁽³⁾

« وعلى الرغم من أننا نعلم أن الإنسان العربي يحيا في كنف قبيلته التي ينتمي إليها، ويُعرف من خلالها فإن ذلك لم يقف حائلا دون ظهور ألوان من التمرد الفردي، فقد يرفض الفرد مجتمعه الذي ينتمي إليه ويهجره إلى مجتمعات أخرى تحت ضغوط اجتماعية يمارسها هذا المجتمع حتى يصل هذا إلى عدم الرغبة في الانتماء إليه ويحاول جاهدا الانفصال عنه وهذا ما يتحقق في تجربة "الصّمّة بن عبد الله القشيري" الذي واجه غربته بين أهله وعجزه في السيطرة على الظروف التي تواجهها باغتراب آخر ولكن ما أن تخطت قدماه ربي (نجد) حتى التهبت في نفسه نوازع الشوق والندم ولكن كبرياءه حال بينه وبين نواذعه:

أقول لصاحبي والعيس تموى بنا بين المنيفة فالضّمّار
تمتّع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

(1) فاطمة حميد السويدي: الاغتراب في الشعر الأموي، ص: 12-13.

(2) بدر ضيف: شعر طريح بن اسماعيل الثقفي، دار الوفاء، ط1، 2004، ص: 94.

(3) بدر ضيف: شعر طريح بن اسماعيل الثقفي، ص: 95.

ألا يا حبذا نفحات نجد ورياً روضه بعد القطار

لقد كان غضبه وتمرده مشاعر مؤقتة إلا أن هجرته كانت دائمة منذ أن استقر في المناطق المفتوحة وظل ارتباطه (بنجد) موطنه الأصلي قويا متصلا مفعما بمشاعر الحب والتلاحم.

فإني أحبّ النير والبرق التي بها النيرُ حُباً خالط اللحم والدم»⁽¹⁾.

إضافة إلى العاملين الاقتصادي والاجتماعي، اللذان كان لهما الدور الكبير في إبراز ظاهرة الاغتراب في العصر الأموي نجد عوامل أخرى ساهمت في ظهور هذه الظاهرة كالعامل البيئي أو الحضاري وكذا العامل السياسي.

ونتيجة لهذه العوامل ظهرت ألوان كثيرة للاغتراب، كالاغتراب الاجتماعي، والاغتراب العاطفي، والاغتراب السياسي.

هذا الأخير الذي كان « له الدور الأساسي في تشكيل الحياة السياسية لذلك العصر»⁽²⁾ خاصة

وأنه في أواخر هذا العصر ظهرت بعض الخلافات حول الحكم مما عزّز هذا النوع من الاغتراب..

«أما في العصر العباسي فقد تغير الحال فظفرت الثورة العباسية فيه بالبيت الأموي الذي كانت نفوس الرعية تمتلئ سخطا وحفيظة عليه لما أذاقهم من الظلم، ولما حرّمهم من الإنصاف والعدل الاجتماعي ولما ازدري من الحق والواجب»⁽³⁾، ومن ثم سقطت دولة بني أمية واستولى أبو السفاح عليها فعمل بذلك «على إبادة الأمويين وأخذ يتعقبهم تعذيبا وتنكيلا، وأعمل السيف فيهم حتى أتى عليهم، ولم ينج منهم أحد إلا من هام على وجهه وهرب إلى أصقاع الأرض، ومن أبرز هؤلاء كان الأمير " عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك " الذي لقب بالداخل، فقد أفلت من يد بني العباس، وفر متخفيا من الشام إلى مصر إلى شمالي إفريقيا ثم إلى المغرب، في رحلة شاقة مليئة بالمغامرة والمخاطرة»⁽⁴⁾ التي كانت - بالتأكيد- بحثا عن الموطن الآمن والعيش الهانئ فوجد ما كان يطلبه في بلد المغرب «حيث أسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثمائة عام»⁽⁵⁾، لكن استقراره بالمغرب لم ينسه وطنه الشام وأهله الذين تعرضوا للمحن والأهوال والويلات التي تركت في نفس عبد الرحمان الداخل أثرا كبيرا، فحاول أن ينفس عن معاناته بأبيات شعرية تصوّر اغترابه العميق وشوقه الكبير الى موطنه، كهذه الأبيات التي يقول فيها:

(1)-فاطمة حميد السويدي: الاغتراب في الشعر الأموي، ص: 13- 14.

(2)-سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 86.

(3)-شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص: 14- 15.

(4)-سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 91.

(5)-شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص: 14.

أيها الراكب الميمم أرضي
 إن جسمي كما تراه بأرض
 قدر البين بيننا فافترقنا
 قد قضي الله بالفراق علينا
 أقر من بعضي السلام لبعضي
 وفؤادي و مالكيه بأرض
 وطوى البين عن جفوني غمضي
 فعسى باجتماعنا سوف يقضي⁽¹⁾

لقد شعر الداخل بتمزق داخلي ، فهو يحيا بجسمه في أرض الغربة-المغرب - ، لكن قلبه هناك في أرض الشام أين يوجد أهله وأحبته وإخوانه.

ويقال أنه أول ما نزل الى منية الرصافة، نظر إلى نخلة مفردة فهاجت شجنه، وتذكر بلده، فبدأ يقول:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
 فقلت شبيهي في التغرب والتوى
 نشأت بأرض أنت غريبة
 سقتك غواصي المزن من صوبها الذي
 تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
 وطول التنائي عن بني وعن أهلي
 فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
 يسح ويستمرى السماكين بالوبل⁽²⁾

فهذه النخلة غريبة غربة" عبد الرحمن الداخل" ، فقد انتزعت من مكانها الأصلي وهي الصحراء ووضعت في الأندلس، وهذا ما نجده عند عبد الرحمن الداخل، فكأنه يخاطب نفسه هنا داعيا لها بالسقيا. وقد أدت طبيعة التطور الحضاري إلى تغيير في مفهوم الوطن، إذ أصبح يعني المدينة التي يعيش فيها الإنسان محاولا التكيف معها ومن هنا أصبح الاغتراب عن الوطن يعني الاغتراب عن المدينة أو المكان الذي يعيش فيه الإنسان، وظهر هذا النوع من الاغتراب جليا في الشعر، فقد عبّر عنه الشعراء مبينين ألم الفرقة للأهل والجيران والأصدقاء، وهذا ما نستشفه عند " مطيع بن إياس " الذي أحس بألم الفرقة فتشوق إلى الرّي وأهلها حينما كان متواجدا في حلوان ببغداد في أبياته التي يقول فيها:

أسعداني يا نخلي حلوان
 واعلما أن ريبه لم يزل يف
 ولعمري لو ذقتما ألم الفر
 كم رمتني صروف هذي الليالي
 وابكيا لي من ريب هذا الزمان
 رق بين الألاف والحيران
 قة أبكا كما الذي أبكاني⁽³⁾
 بفراق الأحباب والخلان

(1) سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 91 - 92.

(2) ينظر سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 91 - 92، وياقوت الحموي: معجم البلدان ، ص : 1298.

(3) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب ، (د، ط، د، ت) ، ج13، ص: 331.

«أما "أبو تمام" فيعلن أن الاغتراب قد تملك جسده، وأن الدهر مصرّ على أن يفرّق بينه وبين وطنه وإخوانه، فكلّما اتخذ وطناً غربه الدهر، ولهذا فهو دائم التوديع ودائم الأحزان والآلام وفي شوق مستمر يقول:

ما اليوم أوّل توديع ولا الثاني
دع الفراق فإنّ الدهر ساعده
البين أكثر من شوقي وأخراي
فصار أملك من روقي بجثماني
بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا
بالمقّتين وبالفسطاط إخواني
وما اظنّ التوى ترضى بما صنعت
حتّى تشافه بي أقصى خراسان»⁽¹⁾

ويظل "البحثري" يردد في أشعاره حنينه وشوقه إلى الشام يقول:

فسقى اللوى لا بل سقى عهد اللوى
حنت ركابي بالعراق وشاقها
في ناجر برد الشآم وريفه
في ضفتيه تلاعه وكهوفه
ويهيّجني ألا يزال يزورني
وشفاء ما تجد الضلوع من الحوى
أيام نرتبع اللوى ونصيفه
سير يشق على الهدان وجيفه⁽²⁾

ولذلك نجده يلح في قصائد كثيرة أن يأذن له بالرحيل إلى موطنه وذلك بمثل قوله:

وأعتقت الرقاب فمر بعثقي
إلى بلدي وأنت به جدير⁽³⁾

كما نجد "أبا نواس" من أشد شعراء تلك الحقبة إحساساً بالاغتراب فنجده يحن حنيناً شديداً إلى بغداد، فهو يقول:

كفى حزناً أيّ بفسطاط نازح
ولي نحو أكناف العراق حنين⁽⁴⁾

وهو يعبر عن عمق الهوة التي تفصله عن مجتمعه وعن رجال السياسة المتواجدين في عصره يقول:

هذا زمان القروود فاخضع
وكن لها سامعاً مطيعاً

وقد أعلن أبو نواس رفضه في وجه معاصريه لكلّ ما يتمسكون به من قيم ومفاهيم وخاصة المفاهيم الدينية يقول:

(1) الخطيب التبريزي: ديوان أبي تمام، دار المعارف، مصر، ط2، (د، ت)، م3، ص: 308، 310. وينظر إيليا الحاوي: شرح ديوان البحثري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1981، ج1، ص: 594.

(2) يوسف الشيخ محمد: ديوان البحثري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ج1، ص 65، 66.

(3) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر، (د، ط، د، ت)، ج4، ص 280.

(4) علي فاعور: ديوان أبي نواس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994، ص: 537.

مالي وللناس كم يلحوني سفها ديني لنفسي ودين الناس للناس⁽¹⁾

وهذا ما جعل "أبا نواس" يتجه إلى الخمرة لتبديد غربته والقضاء عليها ، فالخمرة في نظره هي التي تنسيه همومه وأوجاعه وتنقله إلى عالم مليء بالبهجة والسرور فهو يقول:

إذا خطرت فيك الهموم فداوها بكأسك حتى لا تكون هموم⁽²⁾

وقوله:

ألا فاسقي خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر⁽³⁾

« ونقف على عمق الاغتراب عن طبائع الناس وأخلاقهم في هذه المرحلة عند الشاعر "علي بن الجهم" الذي عانى من غربة الحبس والنفي فهو يقول لأخيه مشيرا إلى معاناته:

هي الأيام تكلمنا وتأسو وتأتي بالسعادة والشقاء

ولكنه يجذر فيها أحاه من البشر وتقلّبهم ومن غدرهم وخياناتهم، معربا عن خيبة أمله بهم، وعن

يأسه من صحبتهم وعن شدة إحساسه بالانفصال عنهم، يقول:

توقّ الناس يا ابن أبي وأمي فهم تبع المخافة والرجاء

ولا يغررك، من وغد إخاء لأمر ما غدا حسن الإخاء

ألم تر مظهرين عليّ عيبا وهم بالأمس إخوان الصّفاء

فلما أن بليت غدوا وراحوا عليّ أشد أسباب البلاء

أبت أخطارهم أن ينصروني بمال أو بجاه أو ثراء

وخافوا أن يقال لهم خذلتهم صديقا فادعوا قدم الجفّاء

عليهم لعنة الله ابتداء وعودا في الصباح وفي المساء

ولما خرج من السجن زهد في الناس والحياة، ورأى أنه لم يعد له صديق وأنه إن كان في الناس

من يوثق به ويعتمد عليه فقد مات، فصار يذهب إلى المقابر ويجلس بها وحيدا ويسأله رجل ما يجلسك

بين المقابر، فيجيبه

يشتاق كل غريب عند غربته ويذكر الأهل والجيران والوطنا

(1) ينظر سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 95.

(2) -علي فاعور: ديوان أبي نواس، ص: 463.

(3) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص: 225.

وليس لي وطن أمسيت أذكره
إلا المقابر إذ صارت لهم وطنا⁽¹⁾

من خلال هذين البيتين نلمس حنينه وشوقه الى من هم في القبور من أهل وأصدقاء.

ولأبي العتاهية أبيات مشهورة، توضح لنا حالته وحالة الناس في عصره، يقول:

من مبلغ عني الإ مـ
م نصاصا متتاليـة

إني أرى الأسعار أس
عار الرعية غالية

وأرى المكاسب نزره
وأرى الضرورة فاشية

من يرتجي للناس غير
ك للعيون الباكية

من مصيبات جُوع
تمسى وتصبح طاوية

من يرتجي لدفاع كر
ب ملمة هي ماهيته

من للبطون الجائعا
ت وللجسوم العارية

ألقيت أخبارا إلي
ك من الرعية شافية⁽²⁾

فقد اتجه هؤلاء المعذبون الذين عانوا من الغربة في المجتمع ونظمه الظالمة إلى عالم آخر حيث يكون فيه هذا المغترب زاهدا في الدنيا ومن متاعها الفاني، هذا العالم الذي صورته "أبو العتاهية" وأمثاله كثير فأظهروا لنا قيما مثلى كالصبر والقناعة والتوكل على الله والرضا على قدر الله وغيرها كثير من تلك القيم التي أسهب الشعراء الزهاد في الحث عليها عن طريق أشعارهم الخالدة.

إذن هذه هي صور الاغتراب التي عاشها الشعراء وعبروا عنها بأشعار مختلفة تجسد لنا اغترابهم وبعدهم وانفصالهم في فترة كثر فيها الفتن وتوالت فيها رياح الحروب والثورات من كل فج، هذا ما جعل هذه الحقبة من الزمن - القرن الرابع الهجري - مميزة وزاخرة بوقائع وأحداث وفي كل المجالات خاصة المجال السياسي الذي كان يحركه العامل السياسي؛ « حيث لم يعرف العالم الإسلامي عصرا كالقرن الرابع الهجري، اضطربت فيه الحياة السياسية اضطرابا بينا، فكثر الفتن وسفكت الدماء، ويحدثنا "مسكويه" فيقول: " وانبسطت العامة وأغار بعضها على بعض، وظهرت الأهواء المختلفة والنيات المتعادية وفشا القتل، حتى كان لا يعدم كل يوم عدة قتلى، لا يعرف قاتلوهم، وإن عرفوا لم يتمكن منهم، فانقطعت موارد الأموال، وخربت النواحي المتباعدة بخراب دار المملكة، وظهرت في كل

(1) سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 98-99، وشوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص: 262.

(2) ينظر سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 99، وشوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص: 252.

قرية رئيس منها مستول عليها، وتباغوا بينهم، والسلطان صفر اليمين، والرعية هالكون والدور خراب والأقوات معدومة والعييد متهارجون»⁽¹⁾.

"فمسكويه" وصف لنا هذا الوضع الفوضوي الذي كان عليه الناس في القرن الرابع الهجري هذا ما قلل من الأمن والأمان والطمأنينة، فساد الخوف وقوى الظلم، وهناك العامل الاقتصادي «والمتمثل في فساد النظام المالي الذي أدى بدوره إلى خلل في التوازن الاقتصادي بين طبقات المجتمع حيث يمكننا التمييز بين طبقتين في المجتمع، طبقة الخاصة وهي الطبقة المستغلة وتشمل الخليفة والملوك والقادة والوزراء، وذوي النفوذ وبعض التجار والإقطاعيين وطبقة العامة وهي الطبقة المستغلة وتضم أغلبية أفراد الشعب، وقد عرفت الطبقة المستغلة بشراستها في استغلال الطبقة المعدمة وابتزاز أموال الرعية واتبعت أساليب فيها الكثير من التعسف والظلم والقهر والتعذيب بغية الحصول على المال»⁽²⁾.

وهناك إلى جانب العامل الاقتصادي والسياسي عامل آخر، ألا وهو العامل الاجتماعي الذي كان له الدور الكبير في إبراز ظاهرة الاغتراب في هذا القرن يقدم "أبو حيان التوحيدي" وهو ابن القرن الرابع في كتابه "الإمتاع والمؤانسة" صورة عن مجتمعه وعصره، توضح بجلاء مدى تفسخ الحياة الاجتماعية وانحلال الأخلاق يقول: «وقد بلينا بهذا الدهر الخالي من الديانين الذين يصلحون أنفسهم ويصلحون غيرهم بفضل صلاحهم، الخاوي من الكرام الذين كانوا يتسعون في أحوالهم، ويوسعون على غيرهم من سعتهم، وكانوا يهتمون بذخائر الشكر المعجل في الدنيا ويحرصون على ودائع الأجر المؤجل في الأخرى، ويتلذذون بالثناء، ويهتزون للدعاء، وتملكهم الأريحية، عند مسألة المحتاج وتعترئهم الهزة معها والابتهاج، وذلك لعشقهم الثناء الباقي، والصنيع الواقى، ويرون الغنيمة في الغرامة، والربح في البذل، والحظ في الإيثار، والزيادة في النقص»⁽³⁾.

ومما يجدر ذكره أن هناك عاملا رابعا من عوامل الاغتراب أسهم ولكن على نحو آخر، في زيادة حدة الإحساس بالاغتراب في القرن الرابع انه العامل الثقافي «فعلى الرغم مما دب في جسم الدولة من انحلال وتفكك وضعف ووهن وعلى الرغم من حالة الفساد والفوضى و الاضطراب التي سادت المجتمع، فإن القرن الرابع كان من أرقى العصور أدبيا وعلميا وعقليا ويعود الفضل في هذا الرقي الثقافي إلى جملة أسباب منها:

(1)- سميرة سلامي : الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 101، 105.

(2)- سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 105، 108.

(3)- أبو حيان التوحيدي: الامتع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص: 20.

امتزاج الثقافات الناجم عن النشاط في حركة الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة اليونانية والفارسية والهندية إلى اللغة العربية.

ومن أسباب الرواج الثقافي في القرن الرابع أيضا توزع مراكز الحكم في الدولة بعد أن استقلت كثير من الأقاليم عن الخلافة العباسية فظهرت تبعا لذلك منارات كثيرة للعلم والأدب كالري وبخاري وغزنة وحلب والموصل والقاهرة وقرطبة وغيرها من العواصم التي أخذت تنافس بغداد بعد أن كانت وحدها مركزا للحركة العلمية والأدبية والفكرية وقد عمد ملوك هذه الأقاليم إلى التنافس فيما بينهم في تشجيع العلماء ورعاية رجال الأدب والفكر فقربوا العلماء وحثوهم على التصنيف والتأليف وفتحوا أبوابهم للأدباء والشعراء وأغدقوا عليهم الأموال والأعطيات.

وإضافة إلى الملوك والخلفاء فقد كان للوزراء في القرن الرابع دورهم البارز في نمو الحركة الفكرية والأدبية وكان منهم عدد من الكتاب البارزين كالوزير "أبي الفضل بن العميد"، والوزير "الصاحب بن عباد" وكذا الوزير "المهلي" و"سابور بن أردشير" اللذين كانت لهما مكانة في الأدب والشعر.

كل ما تقدم إضافة إلى ظهور الكثير من الفرق والجماعات المختلفة الترععات والاتجاهات وما قام بينهما من جدل ونقاش أسهم بشكل فعال في نهضة الحركة الفكرية والثقافية في القرن الرابع الهجري، لا ريب أنه كلما كان لهذه النهضة الثقافية أثر كبير في نمو وعي الناس، وعمق تفكيرهم، ولا ريب أنه كلما ازداد وعي الإنسان واتسعت ثقافته ازدادت معاناته، والشعراء إضافة إلى ثقافتهم الواسعة يتمتعون بحس مرهف، ومن هنا فإن شيئا كبيرا من الأزمة والمعاناة لا بد أن يهيمن على تجاربهم الشعرية حين يوجدون في مجتمع فاسد كمجتمع القرن الرابع الهجري»⁽¹⁾.

(1) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 114، 118.

توطئة:

إن ظاهرة الغربة بأنواعها لم تنشأ من فراغ إبان العصر العباسي وإنما نشأت نتيجة دواعي وأسباب سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية، حيث كانت لهذه العوامل أدوار فعالة في إبراز مثل تلك الأنواع السابق ذكرها في الفصل الأول سواء كانت غربة اجتماعية أو سياسية أو ذاتية أو زمانية وغيرها كثير.

وأول نوع ظهر من خلال شعر المعري هو الاغتراب الزمني الذي سنحاول تسليط الضوء عليه ودراسته وتحليله علنا نستفيد منه ونفيد به.

فالاغتراب الزمني يظهر على غير عادته غير بعيد عن الوطن والأهل والأحباب، وإنما يظهر داخل الوطن فالشعراء حين يعبرون عن اغترابهم الزمني يكونون داخل أوطانهم غير بعيدين عنه لم يرحوه الى أي مكان آخر، ومع ذلك يحسون بالاغتراب داخله عكس الشعراء في _ الغربة المكانية _ الذين يعبرون عن حنينهم وأشواقهم الى أوطانهم وعن الآلام التي يتلقوها جراء الابتعاد عن التراب والأهل والأحباب فهذا الفراق والعذاب يجعلهم يتطلعون دائما ويتوقون الى ذلك اليوم الذي يعودون فيه الى أوطانهم وأماكن ذكرياتهم، فينعمون بذلك بالدفع العاطفي الذي حرموا منه ويهنؤون في ظل أهليهم وذويهم وهذا الاغتراب؛ أي الاغتراب الذي يحدث داخل الوطن برع فيه الشعراء وأجادوا، فعبروا عنه بمختلف الألفاظ والأقويل فما هو (عبده بدوي) يعرفه بقوله:

«الاغتراب يمثل نزوحا من نوع آخر حتى ولو كان الإنسان يعيش في الوطن فهو يرفض أشياء ويتحداها ويختلف مع أكثر من أسلوب سيطر على الحياة، وإذا كان في بعض الأحيان لا يملك إلا الصمت، فإنه في أحيان أخرى لا يملك إلا أن يصرح، أو يبوح أو يئن... الخ إحساس ضاغط بأن العالم من حوله لا يحس به، ولا يصغي للصراخ، والبوح والأنين وفي ضوء هذا يحس بالاختناق»⁽¹⁾.

"فعبده بدوي" بقوله هذا يلمح الى أن الاغتراب هو نزوح ولكن من نوع آخر غير الذي نعرفه كون الإنسان يغترب مكانيا؛ أي يتعد ويخرج عن المكان الذي كان فيه، فهو يؤكد بأن التزوح والانفصال والاغتراب يكون حتى داخل الوطن _ مثلما قلنا _ غير بعيد عنه.

(1) - عبده بدوي: الغربة والاغتراب والشعر، دار قبا للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص: 8-9.

في شعر المعري

فإذا كان الاغتراب الزمني لا يظهر إلا في ظلّ الوطن بأحداثه لأنّه عامل مهم في إذكائه وإظهاره، فما معنى الزمان؟ أهو موضوع قديم أم جديد؟ وما موقف الشعراء منه؟ فهذه الأسئلة وغيرها سوف نجيب عنها في هاته النقطة التي تثير لنا الاغتراب الزمني في شعر أحد أعلام الأدب العربي ألا وهو المعري.

وعلى إثر هذا نقول أن الزمان أو (الدهر) هو موضوع قديم شغل الإنسان العربي منذ القدم، وكذا لم يغفل الشعر والشعراء عن هذه المسألة فعالجوها وعبروا عنها أحسن تعبير، وهذا ما نلاحظه في قول " زهير بن أبي سلمى ":

بدا لي أن الناس تفنى نفوسهم
وأموالهم ولا أرى الدهر
فانيا⁽¹⁾

فزهير هنا يقف حائراً أمام المفارقة العجيبة للحياة بين حتمية الفناء التي لا بد منها وأبدية واستمرارية الدهر، فهذه المفارقة في الحياة جعلت زهير وغيره في عداء كبير مع الدهر وما يحكم به من مصائب ومشاكل وآفات، هذا ما جعل " امرأ القيس " يعدّه غولا يخون العهود ولا يوفي بها ويلتهم الرجال فيقول:

ألم أخبرك أن الدهر غول
ختور العهد يلتهم الرجال⁽²⁾

وقد جاءنا القرآن الكريم بآيات محكمات توضح إحداها نظرة الإنسان العربي القديم الى الزمان وموقفه منه بقوله: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾⁽³⁾. ويقول الأعشى:

لعمرك ما طول هذا الزمن
على المرء إلا عناء
مُعْن

يظل رجيماً لريب المنون
والحزن
وللسقم في أهله

(1) - زهير ابن أبي سلمى: الديوان شرحه وقدم له علي حسين فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص: 140.

(2) - امرؤ القيس: الديوان، ص: 150.

(3) - سورة الجاثية / 24.

فالآية القرآنية تنسب الى الدهر _ من وجهة النظر الجاهلية _ قوة الفعل والتأثير على الإنسان وهلاكه، والأعشى يشير الى هذا المعنى نفسه، خاصة إذا عرفنا أن الجاهليين لم يفرقوا بين الدهر والزمان والمنون والمنية والحتف والآجال وما أشبه في المعنى ⁽¹⁾، ثم بعد ذلك تبلور مفهوم الزمن وأصبح واضحاً فتمثلوه

«بأنه مظهر وهمي يحدوّدق بنا فيتجسد فينا، وفي الأشياء التي تحيط بنا» ⁽²⁾ ويظهر هذا من خلال ملامستنا إياه في واقعنا المعيش، «وهو بوصفه تجربة يتميز في جوهره بالتواتر والتكرار فهو ينطوي على دورات متعاقبة للأحداث، للميلاد، وللموت والانحلال، بحيث يعكس دورات الشمس والقمر والفصول والوقت المناسب لأداء الأشياء يأتي مرة تلو الأخرى على فترات منتظمة» ⁽³⁾.

وكما نجده عند الشعراء العرب القدماء نجده عند الغربيين، حيث اهتم الكثير من الشعراء والفلاسفة الغربيين بموضوع الزمن والزمان، فنجد مثلاً «أرسطو الذي حاول أن يربط الزمان بالحركة والمتناهي واللامتناهي وبالخلاء والعلل... الخ» ⁽⁴⁾. كما يمثل الزمن عند (برجسون) تجربة نوعية لا كمية حين يكون زمناً مسقطاً على المكان أو المسافة، لا بد أن يستعاد لا متقطعاً على أنه لحظات عاشها المرء، وإنما لا بد من بعث الروابط التي تصل بين تلك اللحظات ⁽⁵⁾.

(1) - عبد القادر عبد الحميد زيدان: التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، دار الوفاء، ط1، 2003، ص: 186.

(2) - عبد المالك مرتاض: الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور، دار هومة، (د، ط)، 2005، ص: 182.

(3) - مجموعة من المفكرين المتخصصين: فكرة الزمان عبر التاريخ، ترجمة: فؤاد كامل، مراجعة شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، يناير 1978، ع 159، ص: 12.

(4) - عبد الرزاق قسوم: مفهوم الزمان في فلسفة ابن رشد، المؤسسة الوطنية للكتاب، 3 شارع زيغود يوسف، الجزائر، 1986، ص: 52.

(5) - ينظر: إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة،

1988، عدد 2، ص: 68.

هذا عن مفهوم الزمان عند الفلاسفة والشعراء الغربيين والعرب منذ العصر الجاهلي الى غاية العصر العباسي، العصر الذي سوف نحاول اكتشافه من خلال شعر أبي العلاء المعري كنموذج.

وقد تجلت في هذا الموضوع الفرعي _ الاغتراب الزماني - موضوعات فرعية أخرى سوف نلقي عليها الضوء محاولين معالجتها ودراستها من خلال شعر أبي العلاء المعري المتجسد في ديوانيه سقط الزند والذوميات.

1- الشاعر وأحداث الزمان:

إنّ موضوع الزمان كغيره من المواضيع الأخرى قد أخذ قسطاً وافراً من الاهتمام والمعالجة لدى شاعرنا أبي العلاء المعري، وهذا ما نستشفه في أشعاره المتناثرة هنا وهناك.

نزول كما زال أباًوناً
ويبقى الزمان على ما ترى
نهار يمر وليل يكر
ونجم يغور ونجم يرى⁽¹⁾

« فأبو العلاء يحدثنا عن الزمان، فيذكر لنا زمانين: أحدهما زمان أبدي سرمدي والآخر زماننا؛ أي عمرنا، وأيضاً عمر النجوم والكواكب والنهار والليل وكل مظاهر الطبيعة، هذا الزمان الأخير يبدأ وينتهي في حركة دائرة مستمرة هو الآخر، في داخل الزمان السرمدي الأول »⁽²⁾.

ويقول الشاعر في لزومياته:

أعجب بدهرك أولاه وآخـره
إنّ الزمان قديم سنه حدث⁽³⁾.

فالزمان على حد قول المعري قديم قدم الإنسان، ظهر ومنذ الأزل بظهور الإنسان والحياة فهو يتعجب من هذا الدهر منذ بدايته الى نهايته، وقد توالى الأيام فيه وتعاقبت من صبح وإمساء وهذا ما لاحظته وعبر عنه بقوله:

يأتي على الخلق إصباح وإمساء
وكلنا لصروف الدهر نساء

إلى أن يقول:

(1) - طه حسين: المجموعة الكاملة أبو العلاء المعري، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ط2، 1983، ص: 270.

(2) - عبد القادر زيدان: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري، دار الوفاء، ط1، 2004، ص: 171.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، حققه وأشرف على طباعته جماعة من الأخصائيين، منشورات محمد علي بيضون، دار العلمية، بيروت، لبنان، (د، ط)، 2001، ج1، ص: 166.

خسست يا أمنا الدنيا فأف لنا بنو الخسيصة أوباش أحسَاء (1)

والدهر عند المعري ليس سوى ثلاثة أيام متمثلة في الماضي والحاضر والمستقبل؛ فهو يقول:

ثلاثة أيام هي الدهر كله وما هن غير أمس واليوم
والغد (2)

ونجده شاكيا من هذا الزمان الذي كواه بحوادثه بقوله:

مدّ الزّمان وأشوتني حوادثه حتى مللت، وذمت نفسي
العمرا (3)

« فقد نسب العرب إليه كل غدر وعاهة ومصيبة تلم بالإنسان كما أنهم لا يرحون يعاتبونه ويثنون شكواهم من أقداره المستبدة الظالمة » (4).

وهذا ما فعله المعري بقوله هذا الذي شكاه فيه من حوادث هذا الزمان التي جعلته يمل العيش ويتمنى الموت والخلاص من هذه الدنيا التي هي كلها مصائب ومشاكل، لا ينفك الإنسان أن يخرج من مشكل ومطب حتى يقع في مطب آخر، هذا إن دل على شيء فإنه يدل على كثرة المشاكل والآفات والمآزق التي في كثير من الأحيان يكون الإنسان في غنى عنها ولكن يجد نفسه في خضمها يتصارع مع أحداثها ويتجرع آلامها، فهي بالتأكيد كلها تعب ومشقة، وهذا ما يظهر في قول الشاعر يتعجب من الذين يريدونها باستمرار ويطلبون العيش فيها ويتمنون البقاء فيها إلى آخر العمر رغم كل ما فيها من مكر وخداع وزيف وغش ومتاع وغيرها من الصفات والخصائص التي تميز الحياة الدنيا عن غيرها من الحياة فهو يقول:

تعب كلها الحياة، فما أعجـ ب إلاً من راغب في
ازدياد (5)

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 39.

(2) - أبو العلاء المعري: ديوان سقط الزند، شرحه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص: 75.

(3) - أبو العلاء المعري، سقط الزند، ص: 315.

(4) - إيليا الحاوي: في النقد والأدب، مقدمات جماعية عامة مقطوعات من العصر الإسلامي والأموي، دار الكتاب اللبناني، بيروت،

ط5، ج2، ص: 37.

(5) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 197.

في شعر المعري

فهو يرى أنّ ما يظنه الناس نعمة وخير إنما هو نقمة وشر تقذفنا به الدنيا، وليس في الحياة شيء من خير، وإنما هي كلها مصائب وعيشها شقاء وآلام، فيقول:

إنما هذه الحياة عناء
فليخبرك عن أذاها العيان⁽¹⁾
ويقول:

فما وجدنا فيها غير الشقاء
وقد بلونا العيش أطوارا
(2)

ويذهب المعري أبعد من هذا فيرى أنّ الشقاء يسيطر على كل نواحي الحياة ويسدّ ثغراتها وهو يعبر عن هذه الحسرة فيقول:

لا أزعم الصفو مازحا كدرا
بل مزمعي أنّ كلّ كدر⁽³⁾
ففي هذا البيت يؤكد المعري خلو الدنيا من كل خير وصفو ونعيم والشقاء فيها دائم وأكيد، والمصائب لا تنفك تطارد بني البشر بسمومها وويلاتها لذلك يطلب عدم المزيد من الحياة الدنيا وذلك بقوله:

فلا تطلب الدنيا وإن كنت ناشئا
بالأخلاء، أربأ

وما نوب الأيام إلا كتائب
تبث سرايا أو جيوش
تعبأ⁽⁴⁾

ومن خلال تتبعنا لديوانيه وأشعاره نجده يتكلم تارة عن الزمن وتارة عن الدهر بقوله:

مضى زمن و العزبان رواقه
عليه، وسيف الدهر عنه كهام
وما الدهر إلا دولة ثم صولة
وما العيش إلا صحة
وسقام⁽⁵⁾

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، علق عليه شرحا عزيز زند، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، (د، ط، د، ت)، ج2، ص: 782.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 370.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 324.

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 38.

(5) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 120.

وتارة أخرى نجده يحكي عن الأيام وتعاقب الليل والنهار في الدهر وهذا ما يظهر جليا في قوله:

نهار وليل عوقبا أنا فيهما
كأني بخيطي باطل أتشبت
أظن زماني كونه وفساده
وليدا بترب الأرض يلهو ويعبث⁽¹⁾

وما زال يتحدث عن الليل وكيف يرجو أن يطول شبابه؛ أي يدوم ويستمر ولكنه من شدة هول ما في هذه البلاد شاب قبل وقت المشيب فيقول:

رجا الليل فيها أن يدوم شبابه
فلما رآها شاب قبل احتلامه⁽²⁾

كما نجد خياله يتمنى استدامة الظلام لفرط شغفه به؛ لأن الخيال لا يظهر عادة إلا في الظلام، وبالإضافة الى ظلام الليل يتمنى زيادة سواد القلب والبصر؛ هذا ما يظهر في قوله:

يود أن ظلام الليل دام له
وزيد فيه سواد القلب والبصر⁽³⁾

ولكنه في أبيات أخرى يصف كيف أن الممدوح يبيت يقظانا في الليالي المظلمة في معارك دائمة تكاثرت فيها الأهوال حتى هاب الليل منها فدعا خالقه أن يعيد عليه ضوء الصباح لينجو مما هو فيه من الأهوال بقوله:

بيت مُسَهَّدًا والليل يدعو
بضوء الصبح خالقه ابتهالا⁽⁴⁾

فواقع الليل يعكس آلام المغترب النفسية ويحكي جانبا من معاناته الإنسانية⁽⁵⁾، ففي هذا البيت ضرب من ضروب البلاغة حيث نلمح إستعارة الشاعر لصفة الدعاء من الإنسان والتصاقها بالليل الذي يدل على الزمن.

« وله مدلولات كثيرة تختلف من شاعر لآخر اختلافا ينبع من الحالة النفسية التي هو عليها وبالتالي يحمل الليل باستمرار رموز متنوعة مختلفة »⁽⁶⁾.

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 166.

(2) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 103.

(3) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 36.

(4) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 27.

(5) - ينظر مي يوسف خليف: ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات، ص: 24.

(6) - عبد القادر عبد الحميد زيدان: التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص: 172.

إذن بعد هذه الرحلة التي استوقفتنا مع أبي العلاء المعري في غربته الزمانية يظهر لنا جليا كيف أن المعري لم يلق باللوم على الزمن أو الدهر بقدر ما ألقى اللوم على أهل زمانه، ويرجع ذلك الى النظرة الوجودية والعقلية والتي لا تلقي بالالتزام على الزمن وإنما على البشر الذين حق على الزمان أن يشكوهم لو استطاع تكلموا، وهذا ما بينه المعري بقوله:

نكي ونضحك والقضاء مسلط
ما الدهر أضحكنا ولا أبكانا
نشكو الزمان وما أتى بجنايئة
ولو استطاع تكلمنا لشكنا⁽¹⁾

فقد ألقى هنا اللوم على أهل زمانه، فكل ما لحقه من حوادث وآلام ومشقة كانت بسبب البشر، فهم المسؤولون عنها، لذلك حاول الاعتزال عن أهل زمانه وهذا ما يتبدى في قوله:

ولا أعاشر أهل العصر إهم
إن عوشروا بين محبوب وممقوت
(2)

ويقول أيضا مفضلا الخمول والاعتزال:

وأصبح واحد الرجلين إمـا
مليكا في المعاشر أو أيـمـلا
ولو جرت النباهة في طريق الـ
خمول إلي لاخترت الخـمولا
(3)

فقد وجد في العزلة والوحدة التي فرضها على نفسه الراحة العظمى المرجوة مثله في دنياه، والطهارة من دنس العصر ولؤم أهله:

هذا زمان ليس لأهله
إلا لأن تمجره أهـل
حان رحيل النفس عن عالم
ما هو إلا الغدر والجـهـل
في الوحدة الراحة العظمى فأخي بها
قلبا، وفي الكون بين الناس

إتقال

(1) - ينظر: عزيز السيد جاسم: الاغتراب في الحياة والشعر الشريف الرضي، ص: 30-31.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 152.

(3) - أشرف علي دعدور: الغربة في الشعر الأندلسي، ص: 47.

ويقول في موضع آخر:

طهارة نفسي في التباعد عنكم
و قربكم يجني همومي و
إدناسي⁽¹⁾

هذا البيت دليل على أن المعري قد وجد في أهل زمانه كل الصفات والسلوكات القبيحة والمستهجنة والتي جعلته يتأكد من أن مخالطته إياهم وعدم البعد عنهم يدنسه مثلهم ويجعله يكتسب ما فيهم من عيوب وصفات لذلك وجد في البعد والنوى والوحدة والاعتزال عن هذا الزمان وأهله حلاً لائقاً، خاصة وأنه يرى نفسه بعيداً كل البعد عنهم في صفاته وسلوكاته، فنجدده يحس بمكانته ويبالغ في الاعتزاز بنفسه ويتعمق في فهم واقعه النفسي، فيظهر في قصيدته (ألا في سبيل المجد) بأنه رجل حازم تدفعه الجرأة الى تسجيل التفرد لنفسه في زمانه وما قبل زمانه، فيظهر شجاعاً يتفوق على الآخرين من فصل القول ورفع الشآن في وقت ساد فيه الجهل والذل والهوان والظلم فهو يقول:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل
عفاف وإقدام، وحزم،
ونائل!

أعندي، وقد مارست كل خفية
يُصدّق واشٍ أو يُخيّب
سائل؟

أقل صدودي أنني لك مبغض؛
وأيسر هجري أنني عنك
راحل

إذا هبت النكباء، بيني وبينكم؛
فأهون شيء ما تقول
العواذل

تعد ذنوبي، عند قوم كثيرة
ولا ذنب لي، إلا العلى
والفضائل

كأني، إذا طلت الزمان وأهله
رجعت، وعندي للأنام
طوائل

(1) - عائشة عبد الرحمن : مع أبي العلاء في رحلة حياته، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1972، ص: 198- 199.

في شعر المعري

وقد سار ذكري في البلاد، فمن لهم
متكامل
يُهمُّ الليالي بعض ما أنا مضمّر
حامل
ياخفاء شمس، ضوءها
لأن بما لا تستطعه
وإني، وإن كنت الأخير زمانه،
الأوائل
وأغدوا ولو أن الصباح صوارم؛
جحافل
وإني جواد لم يُحلّ لجامه،
الصياقل
فإن كان في لبسِ الفتى شرف له،
والحمائل
ولي منطق لم يرضى لي كنه منزلي؛
نازل
ولما رأيت الجهل، في الناس فاشيا؛
جاهل
فوا عجبا؟ كم يدعي الفضل ناقص،
النقص فاضل⁽¹⁾
ووا أسفا! كم يظهر

إلى آخر الأبيات، فالقصيدة طويلة « وهي تطرح خلاصة رؤية وفلسفة حياة من خلال ما امتلأت به نفس صاحبها من إحساس بتضخم كيانه، أسهم في زيادته لديه تلك الغربة التي فرضها على نفسه بعيدا عن مجتمعه، وكأنه لا يريد أن يأبه به بعد أن عجز عن فهم حقيقة مكانته كما فهمها هو نفسه »⁽²⁾.

(1) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 106، وطه حسين: أبو العلاء المعري حياته وشعره، دار النفس للنشر (د، ط، د، ت)، ص: 95.

(2) - عبد الله التطاوي: القصيدة العباسية قضايا واتجاهات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د، ط، د، ت)، ص: 349.

في شعر المعري

لقد أجريت إحصاءاً لكلمة الزمان وتواترها في ديوانيه سقط الزند واللزوميات إضافة الى ما ينتمي إليها وما يدور في حقلها الدلالي من ألفاظ وعبارات، تكشف لنا عن مدى اغتراب المعري وعن أهمية الموضوع ومكانته من شبكة الموضوعات الفرعية الأخرى التي تنتظم ضمن الموضوع الرئيسي؛ أي الاغتراب. ولمعرفة ذلك وإثباته علمياً سنتأمل الجدول الآتي:

الكلمة	التكرار
الزمان + الزمن	211
الدهر	262
الدنيا	185
الحياة	122
الدجى + الليالي + الليل	197
الأيام	110
الشهور	05
الخطوب	34

فمن خلال هذا الجدول يبدو أنّ كلمة (دهر) هي الأكثر تواتراً بين المجموعة المختارة، وقد تكمن علة ذلك في كون « لفظ الدهر من أكثر الألفاظ دوراناً في كلام الجماعة العربية »⁽¹⁾ أو ربما لأنها تحمل شحنة عاطفية ووقع خاص لا يتوفر في غيره. تضاف الى كلمة الدهر لفظتا الزمان والزمن وهما اسم للقليل أو الكثير من الوقت فلفظة الزمان يتخللها المد الذي يسمح بانسياب آلام المعري معه عند ما يتذكره لذلك تكرر (184) مرة في حين لم يتكرر لفظ الزمن سوى (27) مرة فضلاً عن الليالي والتي تكررت (86) مرة، والليل والذي تكرر (73) مرة، والدجى والذي تكرر (38) مرة،

(1) - كريم زكي حسام الدين: الزمان الدلالي، دراسة لغوية لمفهوم الزمن وألفاظه، في الثقافة العربية، دار غريب، القاهرة، ط2، (د،ت)، ص:120.

والأيام تكرر (110) مرة، والشهور تكرر (5) مرات فقط، فإذا ما قارنا هذه الألفاظ بالدَّهر والزمن نجد أنها أقل اطرادا منهما، وذلك راجع ربما للأثر الوجداني الذي يخلفونه كما صادفتنا بعض الكلمات التي تنتمي إلى الموضوع الفرعي-الشاعر وأحداث الزمن- من مثل خطوب، رزايا، صروف...

2- الشاعر والموت:

« يعتبر الموت موضوعاً بالغ الصعوبة، وترجع الصعوبة إلى عوامل كثيرة: فالموت من ناحية، موضوع ينطوي على كثير من المفارقات والمتناقضات وهو من ناحية ثانية موضوع كرهه مزعج لا يشجع على التفكير أو الحديث؛ أما أنه ينطوي على كثير من المفارقات فهذا واضح من مجرد النظرة العابرة إلى طبيعته: فطبيعة الموت هي الكلية المطلقة فجميع البشر فانون ولا محالة »⁽¹⁾ فكل من هو على الأرض سوف يذوق طعم الموت وهذا ما بيّنه الله تعالى في الآية الكريمة:

إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾⁽²⁾.

ومن الطبيعة المتناقضة للموت أيضاً مثلما أقر الكاتب في كتاب (الموت في الفكر العربي) أنه يجمع بين اليقين وعدم اليقين، فأنا أعرف بالضرورة أنني سأموت، لكنني لا أعرف مطلقاً متى سيكون ذلك كما قال (بسكال) بحق: « أن كل ما أعرفه هو أنه لا بد لي أن أموت عما قريب، ولكنني لا أجهل شيئاً قدر ما أجهل هذا الموت الذي ليس لي عليه يدان، فأنا على يقين من شيء واحد فحسب هو أنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، أما متى يجيء الأجل فعلمه عند الله، ومن طبيعة الموت أيضاً أنه الحد النهائي الذي يتحدى القيم ويكذب شتى مزاعم الإنسان، ويقول أبيقور: " ليس

(1)- جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة إمام عبد الفتاح، سلسلة عالم المعرفة، يناير 1978، ع 76، ص: 09.

(2)- سورة العنكبوت/ 57.

(3)- جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ص: 09.

(4)- سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، ص: 250.

(5)- أحمد محمد عبد الخالق: قلق الموت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1998، ع 111، ص: 16.

للموت وجود بالقياس إلينا لأنه طالما كنا أحياء فليس ثمّة موت، وبمجرد ما يوجد الموت فإننا لن نكون أحياء" ⁽¹⁾ .

وليس يكفي أن نقول أن الإنسان هو الموجود الوحيد الذي يموت. بمعنى الكلمة وإنما ينبغي أن نقول أيضا أنه الموجود الوحيد الذي يملك يقينا مزعجا عن حقيقة الموت، وكما قال الفيلسوف الرواقي سفيكا: «إذا أردت ألا تخشى الموت فإنّ عليك ألا تكف لحظة عن التفكير فيه وغريزة الخوف من الموت متأصلة في الانسان من طفولته حتى تسلّمه الى القبر، وكثيرا ما تتصادم هذه الغريزة مع الغرائز الأخرى كالغضب وجب الابتكار والاستطلاع» ⁽²⁾ فمثلما وجدت الحياة وجد الموت فكلّ منّا خلق ولكن لا يوجد واحد من بيننا سوف يخلد فكلّنا فانون والى القبور لاحقون .

« فالموت إذن حادث من نوع مختلف تماما، إنّه حادث عنيف يكسر إيقاع الحياة الرتيب نسبيا وليس هذا فقط بل إنه يوقف دورتها ويجعلها تقف جامدة عند تاريخ يستحيل أن تتحرك بعده.

فإذا كانت في الحياة الدنيا للإنسان حوادث مهمة، فإن الموت آخرها وأهمها ومنهيهها، ليس قبله حادث أهم وليس بعده حركة منظورة ولا توقعات قريبة ولا آمال عريضة، ليس ثمّة بعده أعمال تكتسب ولا ذنوب ترتكب، وكل ذلك علمه عند ربي» ⁽³⁾، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أُتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ⁽⁴⁾.

لقد كان الموت مصدر قلق للبشرية جمعاء ونجد بالمقابل له الخلود الذي يعتبر كحلم ولكن هذا الأخير يبدده الواقع الذي نعيشه لأنّ كل خطوة نتقدمها في العمر هي خطوة نحو الممات وهذا ما بيّنه حاتم الطائي بقوله:

يسعى الفتى، وحمام الموت يدركه
وكل يوم يُدني للفتى

الأجل ⁽¹⁾

(1) - سورة الإسراء/35.

(2) - حاتم الطائي: الديوان، شرحه وقدم له - محمد رشاد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص: 93.

(3) - زهير ابن أبي سلمى: الديوان، شرحه وقدم له حسين فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1988، ص: 110.

(4) - سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، ص: 251.

في شعر المعري

فكل يوم يزيد في عمر الإنسان ينقص من إمكانية عيشه ويقرب إليه ساعة النهاية والفناء، فكلما اكتسب الإنسان سنين معاشه خسر مثلها، فيصبح هنا المكسب قرين الخسارة، لأن الارتقاء في العمر هو قرب من الأجل ودنو منه وهذا ما يظهر لنا في حقيقة الأمر في حياتنا ومن خلال الواقع المعيش، وهي حقيقة أكيدة ومسلم بها عند الخاص والعام فلا تحتاج الى دليل بحكم المعيشة لها في هذه الحياة.

وقد أكدها الكثير من الشعراء من بينهم زهير بن أبي سلمى بقوله:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم⁽²⁾

ويقول:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم⁽³⁾

الآخر المتعلق بالحياة الأخرى، فالإنسان يعلم ماضيه الذي مرّ به وحاضره المعيش، ولكنه يجهل مستقبله لأنه في علم الغيب.

فإذن هذه مختلف الرؤى حول حتمية الموت لزهير وحاتم الطائي ومختلف الغربيين الذين استدلينا بهم لإثراء هذا الموضوع ، فما هي حقيقة الموت عند شاعرنا أبي العلاء المعري ؟ وكيف تجسّدت عنده ؟ وما موقفه منها ؟.

لقد ذكرت آنفاً أن أبا العلاء المعري قد سئم من الحياة ومل العيش فيها لما لها من آثام وشروخ فهي نقمة على الإنسان ودار بلاء، كل شيء فيها جعل المعري يمقتها وناسها وهذا ما جعله يفضل الموت، احتقاراً أو كرها لها _ للدنيا _ فقد تمثلها غولاً بعكس الآخرين الذين تمثلوها عروساً بقوله:

ظن الحياة عروساً خلقها حسن وإنما هي غول خلقها شرس⁽⁴⁾

ولكن هناك صراع يعيشه المعري بين حب الدنيا ومقتها، بين الفزع من الموت والترحيب به، فالموت هو الحقيقة التي لم يشك فيها بعد إيمانه ورغم ذلك فهو يخافه بل ويستغيث منه فيقول:

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 457.

أبانا اللب بلقيا الـردى فالغوث من صحة ذاك النبأ⁽¹⁾

وهناك من يرجع سبب خوف المعري من الموت الى جهله وخوفه مما وراء الموت. ونلاحظ أن المعري كان يكره حقيقة الموت في القديم ربما لأنه لم يتوصل الى كره الحياة وذم العيش فيها، فقد كان لازال في شبابه مفعم بالحركة والحماس متفاعلا تواقا الى العيش أكبر قدر لكي يحصل فيها على أعلى المراتب وأسمائها من علم ووجاهة إذ لم تضنه الحياة وتتعبه بمشاكلها ومصائبها، فلم يتوصل بذلك الى الشقاء الذي بات يتكبده والمعاناة التي كان يتجرع مرارتها كل يوم وليلة مثلما وصل إليه في شيخوخته فيقول:

قدما كرهت الموت والله شاهد
وقد عشت حتى اسمحت لي قروني
وأحسبه لو جاءني لأبيته
ومن عند ربي نصرتي ومعونتي
إذا أنا واراني التراب فخلني
وما أنا فيه قد كفيت مؤنتي⁽²⁾

ثم لا نلبث أن نجد المعري مشتاقا الى الموت لأنه سئم الحياة وملها ، فبات مؤمنا به تواقا لملاقاته، وقد تمناه بعد الخمسين من عمره فيقول:

إذا كنت قد جاوزت خمسين حجة
ولم ألق خيرا فالمنية لي ستر
وما أتوقى والخطوب كثيرة
من الدهر إلا أن يحل بي الهتر⁽³⁾
فهو بذلك بعد هذا السن يدعو ربه بأن يرحله لأنه أطال البقاء في هذه الدنيا يقول:

رب متى أرحل عن هذه الـ
دنيا فإني قد أطلت المقام
ويقول: يا رب أخرجني الى دار الرضى
عجلا فهذا عالم منكوس⁽⁴⁾
فهو هنا يطلب من الله أن يعجل في رحيله من دار الدنيا الى دار الآخرة فإذن هو يتمنى الموت، ويرى أنه هو الراحة من عناء الحياة حيث قال:

ما بعد ذين سوى الحمام، وإنني
لإخال أن الهجر في طویل.
وفضيلة النوم الخروج بأهلـه
من عالم هو بالأذى مجبول⁽¹⁾

(1) - سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري، ص: 251.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 149-150.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 280.

(4) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري ، ص: 213.

وقال:

المعنى ويخث اللّجب⁽²⁾ ما أوسع الموت يستريح به الجسم

ويقول:

فلست أكره، قربه إن يقرب الموت مني
يصبر القبر دربه وذاك أمنع حصن
خطبا ولا يخشه كربه⁽³⁾ من يلقه لا يراقب

ويقول في موضع آخر:

فيها والعيش مثل السهاد⁽⁴⁾ ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم

ويقول:

لم تكن طرق هذا الموت موحشة لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة
وكان من ألفت الدنيا عليه أذى وكان من ألفت الدنيا عليه أذى
كأس المنية أولى بي وأروح لي كأس المنية أولى بي وأروح لي
واحواجا⁽⁵⁾

فالشاعر يتكلم في هذه الأبيات الأخيرة عن الموت وطرق الوصول إليه فلولا الصعوبة والمشقة في الوصول إليه - بحسب رأيه - لذهب إليه كل الأقوام للخلاص من هذه الدنيا، كما أكد على أحقية الموت بالنسبة له للاستراحة من هذه الحياة التي أتعبته وأرقتته من دون شك وهو يقول في هذا المعنى أيضا:

يدل على فضل الممات وكونه إراحة جسم أن مسلكه صعب

(6)

(1) - عمر الفروخ: حكيم المعرفة، دار لبنان، بيروت، لبنان، (د،ت، د،ط)، ص: 3.

(2) - عزيز السيد جاسم: الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، ص: 40.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 96.

(4) - حنا الفاخوري: منتخبات الأدب العربي، ص: 360 .

(5) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 177.

(6) - طه حسين: مع أبي العلاء في سجنه، دار المعارف، مصر، ط10، (د،ت)، ص: 91.

في شعر المعري

وقد فضل أبو العلاء المعري الموت على الحياة لأسباب عديدة منها: إحساسه بخواء الحياة وعبثيتها، وانعدام المنطق والخير فيها، جعله يرى أنه لا سند يرتكن إليه الإنسان سوى الموت، بل إن الموت هو الأمل والمرجى لأنه المخلص من العذاب، إضافة إلى أن الموت هو الحقيقة الوحيدة والمؤكد في حياة الإنسان المليئة بالمعاناة⁽¹⁾.

فهي فرض على الإنسان سوف يصل إليها ويذوق منها لا محالة وهذا ما يؤكد قول الشاعر:

تباركت إن الموت فرض على الفتى ولو أنه بعض النجوم التي تسري
ورب امرئ كالنسر في العز والعلال هوى بسنان مثل قادمة النسر

(2)

والشيء الذي يهون على الإنسان ويجعله يتقبل حقيقة الموت هو أنه عابر سبيل في هذه الدنيا ولا محالة هو زائل وراحل منها إلى حياة أخرى حتى وإن كان بدون رضاه فإنه ونتيجة القهر الذي يركبه من هذه الدنيا يهون عليه الأمر ويتقبله بقوله:

وهوّن ما نلقى من البؤس أننا بنو سفر أو عابرون على جسر
وما يترك الإنسان دنيا راضيا بعز ولكن مستضاما على قسر⁽³⁾

ويقول أيضا في هذا المجال مبينا حتمية الموت على الإنسان بدون اختبار بعد أن تمعن في الحقائق جميعا ووجد أن حقيقة الموت أكيدة ومحتمة على الإنسان وهي واقعة لا محالة، ومن دون شك، فلذلك تساءل عن البلاد التي تحوي قبره بقوله:

سألت عن الحقائق كل يوم فما ألفت إلا حرف جحد
سوى أبي أزول بغير شك ففي أي البلاد يكون لحدي⁽⁴⁾

فالحياة علة دواؤها الموت وهذا ما يظهر في قوله :

وما العيش إلا علة برؤها الردى فخلّي سبيلي أنصرف لطياتي⁽⁵⁾.

(1) - ينظر سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري، ص: 252.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 351.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 351.

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 257.

(5) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 213، 1986، ص: 213.

ولأنّ الموت إزالة من هذه الحياة فهو عيد بالنسبة له، ويمثل له رمز للسعادة والفرح وهذا ما يظهر في قوله:

أنا صائم طول الحياة و إنما فطري الحمام و يوم ذاك أعيد⁽¹⁾

ولكن أية راحة وأية سعادة يتحدث عنها أبو العلاء المعري؟ هل رأى فيه النهاية والفناء لحياته في الدنيا، ومن ثمة الخلاص من الشقاء؟ أم أنه بداية لحياة أخرى ملؤها النعيم والسعادة خالية من الشرور والآثام؟.

وهذا ما يتبين في أشعار أبي العلاء، حيث يقول:

وقد بلونا العيش أطواره فما وجدنا فيه غير

الشقاء

تقدّم الناس فيا شوقنا إلى إتباع الأهل

والأصدقاء

ما أطيب الموت لشرا به إن صحّ للأموات وشك

التقاء⁽²⁾

فهو يشتاق الى الأهل والأصدقاء الذين ارتحلوا عنه ويشتهي الموت ويراه عذبا طيبا في حالة واحدة هي حالة اللقاء بهم.

لقد كره أبو العلاء ما حوله من عالم وضاق به، ورأى أن الحياة كما يفهمها هؤلاء لا تساوي شيئا فترع الى حياة أخرى، يستطيع فيها الاندماج مع البشر على أساس من النقاء والصفاء والحبّة والطهر ولم يجد هذا ممكنا إلا في الحياة الآخرة، حياة الخلود التي يجتمع فيها الأطهار الصالحون ويتضح هذا في قوله:

إن كان نقلي عن الدنيا يكون لي

خير وأرحب فانقلني على

عجل

(6) -عائشة عبد الرحمن : مع أبي العلاء في رحلة حياته ،ص:201، و يوسف فرحات: كتاب الموسوعة الفلسفة الإسلامية وأعلامها، ط1،41.

(2) - أبو العلاء المعري، اللزوميات، ج1، ص: 53 .

وإن علمت مالي عند آخر ربي
الأجل⁽¹⁾ شرا وأضيق فأسأ ربّ في

فهو هنا يتمنى الموت بعجل إذا كان مصيره الجنة حيث يمكن خلاصه فيها من الاغتراب والانفصال والشقاء، أما إذا كان مصيره جهنم فهو يرجو التأجيل والتأخير، ولذلك قال مشتاقا للدار الآخرة:

متى أنا للدار المريحة ظاعن
وقد ذقتها ما بين شهد وعلقم
فقد طال في دار العناء مقامي
وجربتها من صحة وسقام⁽²⁾

« وقد ارتبط تفضيله للموت بالتشاؤم، وتشاؤمه يرجع إلى اعتقاده أن الشر في الوجود غالب على الخير، وأن طبيعة الانسان مبنية على الفساد، والحياة تنطوي على تناقض مفرج، وهو ما يمكن أن نسميه بمسألة الوجود، وفي نهاية حياة الإنسان القصيرة والمليئة بالآلام لا يجد إلا شيئا واحدا هو الموت والعدم»⁽³⁾. وهذا ما نستشفه في أقواله:

إذا غدوت بطن الأرض مضطجعا
وأمراضي فثم أفقد أوصابي
ويقول: الموت جنس ما تميز واحد
كثل الجسوم الى التراب
تنسب

وترتفع نزعة التشاؤم عنده فيقول:
يحطمنا ريب الزمان كأثنا
زجاج ولكن لا يعاد له سبك⁽⁴⁾

إذا ما تتبعنا أشعار المعري وجدنا بأن فقدانه لأهله وأحلائه إلى الأبد بين الفينة والأخرى كان عاملا حاسما ساعد في تعميق اغترابه وتضخيم شعوره بالوحدة والضياع.

(1) - سميرة سلامي : الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 213 - 214.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 743.

(3) - سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري، ص: 252.

(4) - عزيز السيد جاسم: الاغتراب في حياة الشعر الشريف الرضى، ص: 40.

ومن بين الذين تأثر بموتهم وفجع بهذه الكارثة التي حلت وحدثت له وهو في ديار
الغربة موت أمه وهو ببغداد، فقد قال فيها:

سمعت نعيها ! صمى صمام
وأمّني إلى الأجدات أم
وأكبر أن يرثيها لساني
كأن نواجدي رُدّيت بصخر
وإن قال العواذل لا همّام
يعز عليّ أن سارت أمامي
بلفظ سالك مجرى الطعام
ولم يمرر بمن سوى كلام
مضت وقد اكتهلتُ فخلتُ آتي
رضيع ما بلغت مدى الفطام⁽¹⁾

فموت أمه صم أذنه عن السمع من شدة الصدمة فعز عليه أن يفقدها وهو الذي
مازال يحتاج إليها برغم كبره، إلا أنه ما زال كالرضيع الذي فطم.

ويواصل في رثاء أمه فيقول:

فيا ركب المنون أما رسول
سألت متى اللقاء فقل حتى
يبلغ روحها أرج السلام
يقوم الهامدون من الرجّام⁽²⁾

يحاول المعري في مرثيته هاته أن يبعث لها رسولا يبلغها السلام ، ولشدة اشتياقه لها
وحبا في الملاقاة بما يسأل عن زمن اللقاء.

هذا بالإضافة الى موت أبيه وصاحبه المفضل، فكل هذه الأحداث والأحزان من
فقد الأحبة يوما بعد يوم ساعدت في إحساسه بالوحدة في هذا العالم فهو كالغريب لا أب
له ولا أم ولا صاحب يستند عليه.

« وقد ربط المعري بين ثنائية الموت والألم واللذة حيث يقول:

إنّ حزنا في ساعة الموت أضعا ف سرور في ساعة الميـالاد
وهنا نرى أن المعري يبرز لنا فلسفته في اللذة والألم من حيث أن السعادة أو اللذة
قد يعقبها ألم أكبر منها بكثير، كما أن الألم قد يعقبه لذة»⁽³⁾.

(1) - عائشة عبد الرحمن: مع أبي العلاء في رحلة حياته، ص: 159.

(2) - علي شلق: أبو العلاء المعري والضباية المشرقة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1981، ص: 25.

(3) - سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري، ص: 253 ، 255.

في شعر المعري

كما نجده قد ربط بين الموت والحرية، فقد انتهى الى نتيجة استراح إليها وهو راضٍ عنها وهي أن الموت على الرغم من كره الانسان له إلا أنه يحمل معه الحرية التي يتمناها الإنسان ففي الموت إنعتاق وتحرر من الدنيا وشروورها فقد أدرك أن الحياة لا قيمة لها وما العيش فيها سوى عبث والخلاص منها يكون بالموت فيقول:

موت يسير معه رحمة
خير من السير وطول البقاء
وقد بلونا العيش أطواره
فما وجدنا فيه غير الشقاء

كما نجده في مواضع أخرى يربط بين الموت والأخلاق فيقول:

وقد علمنا بأنا، في عواقبنا
إلى الزوال، ففيم الضغن والحسد⁽¹⁾

ومن هنا نستخلص أن المعري كغيره من المسلمين آمن بحقيقة الموت ولم ينكرها، فهو حتمية وفرض على الإنسان سوف يجتاز طريقه كل فرد في هذا الوجود، إلا أن المعري في كثير من الأحيان بالرغم من الخوف الذي كان يعتريه بين الفينة والأخرى كان تواقاً إليه مشتاقاً للقاءه وذلك لاعتبارات عدة منها كرهه للحياة.

وهكذا بعد هذه الدراسة للموضوع الفرعي - الشاعر والموت - ارتأيت أن أحصي عن طريق ديوانيه سقط الزند و اللزوميات كل الكلمات التي تندرج تحت لفظة (موت) وتحمل نفس المدلول، كما هو مبين في الجدول الآتي .:

الكلمة	التكرار
الموت	120
المنية + المنايا + المنون	99
الحمام	62

يبدو من هذا الجدول أن لفظة (موت) بعدها الموضوع الفرعي الرئيسي أكثر تواتراً بين المجموعة، ويرجع ذلك لكثرة طلبه لأنه كان يتمنى الموت ويشتاق إليه فهو المخلص من العذاب الذي كان يعيشه والشقاء الذي يتكبده.

إضافة الى لفظة موت نجده استعمل لفظة المنية كمفرد حيث كررها (6مرات) واستعملها بصيغة الجمع والتي تمثلت في لفظة (المنايا) المكررة (74) مرة، والمنون المكررة

(1) - ينظر سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري، ص: 253، 255.

بـ (19) مرة، كما لا أنسى لفضة (الحمام) التي عوض بها الموت والمنايا فقد كررها (62) مرة، وذلك لأهميتها وقيمتها عنده.

فإذن يظهر لنا جليا أن المعري من أولئك الذين شعروا وهم داخل أوطانهم بنوع من الانفصال والضياع والتمزق وذلك راجع الى عوامل كثيرة جعلته يحس بالاغتراب بين ناسه وأهل زمانه، خاصة وأنّ هذا الزمان بات لا يرحم وهو ملم بالكثير من المصائب والآفات التي قد تضر بالإنسان، فهي تعكس مميزات الناس في هذا الزمان المر الذي طالما اشتكى منه المعري فقد أذاقه مرارة العيش لما لاقاه فيه من ويلات وآهات جعلته يؤمن بفكرة كانت أقل تقدير بعيدة كل البعد عن تفكيره ومخيلته ألا وهي الموت، فهذا الأخير الذي بات يتمناه ويطلبه ليل نهار من رب السماوات لكي يريجه من تعب الحياة ومشقاتها خاصة بعد كبره ونفاذ كل فرص الحياة من تحقيق آمال والوصول الى مراتب عليا وسامية في هذه الدنيا التي كره العيش فيها خاصة بعدما علم حقيقتها لأنها لا تبعث على خير فهي مصدر لكل شر، والعيش فيها مأثم وظلم.

والزمان والموت عنصران أو موضوعان _ إن صح التعبير _ فرعيان لموضوع فرعي ألا وهو الاغتراب الزماني، فقد كانت بصماتهما واضحة من خلال ديوانيه سقط الزند و اللزوميات وقد عبرت عنهما مختلف الكلمات التي تدور في حقل دلالي واحد مثل الدهر والزمان والزمن والأيام والخطوب هذا إضافة الى الموت والمنايا والمنية والمنون ومختلف الألفاظ الأخرى التي تحمل نفس المعنى.

لقد عدّ الأدب عند بعض المدارس الحديثة بأنه: «تعبير عن المجتمع وبالتالي، فالمجتمع هو الذي يشكل العمل الفني ويحدد قيمته، ونحن مع إيماننا الكامل بأن المجتمع جزء لا يتجزأ من الوجود الذي هو موضوع الأدب والفن بعامة إلا أن الأديب هو الذي يرى الوجود من خلال ذاته، يحاول إدراكه وتفسيره والتعبير عنه»⁽¹⁾.

والوجود هنا هو الوجود بكل نواحيه طبيعية أو اجتماعية أو نفسية أو فكرية.

ومن هنا يمكن القول بأن موقف الشاعر بعدّه _ فنانا _ من المجتمع ورؤيته له يتشكلان عن طريق منظاره الخاص الذي يتحكم فيه تكوينه النفسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي وغيرها، وهذا يعني أن تفاعله مع المجتمع أو الانفصال والتمرد عليه ورفضه والخروج عن دائرته، وهذا لا يكون للمجتمع بقدر ما يكون رفضاً لعاداته وتقاليده وقيمه السائدة ومن هنا يكون الشاعر قد اغترب عن المجتمع وقيمه لأنّ الاغتراب هو: «شعور الفرد بالانفصال عن جانب أو أكثر من جوانب المجتمع، كالشعور بالانفصال عن الآخرين، أو عن القيم والأعراف والعادات السائدة في المجتمع، أو عن السلطة السياسية الحاكمة»⁽²⁾ لذا ارتأيت تناول الاغتراب الاجتماعي ودواعيه التي جعلت الشاعر يغترب وذلك من خلال الموضوعات الفرعية التالية:

1- الاغتراب عن الناس والذي يشمل عناصر كدم أهل الدين والنسك ودم أهل الأدب والشعراء إضافة الى ذم النساء.

2- كما نجد إضافة الى موضوع الاغتراب عن الناس، الاغتراب عن قيم المجتمع وأعرافه السائدة، وكذا الإغتراب السياسي ودواعيه التي أثرت عليه وجعلته يغترب وينفصل عن المجتمع بما فيه من سلطة سياسية.

1- الاغتراب عن الناس:

لقد ذمّ أبو العلاء المعري أهل زمانه، وفضح فسادهم وما اتصفوا به من نفاق ورياء وجهل، لقد تأمل فيمن حوله فوجد الناس على مختلف فئاتهم يغرقون في بحر من الفساد فضاق بهم وصب غضبه على كل فئة منهم ودمهم، ومن بين الفئات التي ذمها المعري فئة أهل الدين والنسك وفي ذلك يقول:

وقد فتشت عن أصحاب دينهم نسك وليس لهم رياء⁽³⁾

(1) - محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القدم والحديث، دار المعرفة الجامعية (د، ط)، 1998، ص: 22-23.

(2) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 151.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 41.

لكنه لم يعثر علي هذه الفئة بعد هذا التفتيش، فحق له أن يهاجمهم هجوما شديدا، وعلماء الدين مراؤون ومنافقون في نظره، يظهرون الصلاح والتقوى والنسك، ويخفون في نفوسهم الطمع والجشع وحب المال:

- كذب يقال على المنابر دائمًا
أخلا يميّد لما يقال المنبر
ويقول:

- لعمرك ما في عالم الأرض زاهد
يقينا ولا الرهبان أهل الصوامع
فهو يؤكد على أن علماء الدين لا يدفعهم إلاّ التكسب والطمع في اعتناقهم للدين:

- وإنما حمل التوراة قارئها
كسب الفوائد لا حب التلاوات
إضافة الى قوله:

- وليس عندهم دين ولا نسك
فلا تغرنك أيد تحمل السُّبحا
وكم شيوخ غدوا بيضا مفارقهم
يسبحون وباتوا في الحنا سُبُحا
ويواصل قوله:

- وتحب أن يثني عليك بأنك الـ
بر التقي وأنت صل أرقم
الى أن يقول:

- لقد صل هذا الخلق ما كان فيهم
ولا كائن حتى القيامة زاهد
تداعوا فقالو ناسك وابن ناسك
وما هو إلاّ مارداً ابن مارداً⁽¹⁾

فقد كان يذم الخطباء الذين يصفون الأمراء والحكام بصفات حميدة كالتقوى والهداية والعمل والصلاح وغيرها من الصفات التي تميزهم وتحبذهم عند العامة من الشعب على حين أنهم - الأمراء والحكام- في الهوى والضلال؛ فهو يقول:

ما أجهل الأمم الذين عرفتهم
ولعل سالفهم أضل وأبتر
يدعون في جمعهم بسفاهة
لأميرهم، فيكاد يبكي المنبر

نعم يكاد يبكي المنبر من ضلالات ذلك الخطيب المرائي الذي يخدع الجماعات ويصور لها الحالة على غير حقيقتها، لا في الشؤون السياسية بل في الشؤون الاجتماعية فيصفه بقوله:

طلب الخسائس وارتقى في منبر
يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة
أمسي يمثل في النفوس ذهولها⁽²⁾

(1)- يوسف خليف : في الشعر العباسي نحو منهج جديد، مكتبة غريب دار قباء للطباعة (د، ط، د، ت)، ص : 182- 183.

(2)- ابن القديم: أبو العلاء المعري، دار سعد للطباعة والنشر، مصر، (د، ط)، 1945، ص: 180.

ويقول:

رويدك قد غُررتَ وأن ت حر
 يجرم فيكم الصهباء صبحا
 يقول لكم: غدوت بلا كساء
 إذا فعل الفتى ما عنه ينهى
 بصاحب حيلة يعظ النساء
 ويشربها على عمد مساء
 وفي لذاتها رهن الكساء
 فمن جهتين لا جهة أساء⁽¹⁾

فقد نظر الشاعر هنا وعبر بهذه القصيدة عن السلطة الدينية التي رجالها جماعة من الفاسدين والطامعين في السلطة فقط، وليس لهم من الدين إلا الاسم، والذين عندهم مصيدة يصطادون بها الناس فلا بد للإنسان من التنبه لمكرهم وفسادهم حتى لا يقع في شراكمهم لقد ألم المعري ما جرى في هذا المجتمع من طرف أهل الدين من مخالفتهم لتعاليم الدين واستعمالهم النفاق والرياء، إضافة إلى كل الأحداث والتراعات التي كانت تقع بين الحين والآخر مما ساعد على ترك آثار وخيمة على نفسية المعري، وهذا ما جعله يحس بالانفصال عنهم والإبتعاد يقول:

غدا أهل الشرائع في اختلاف
 فقد كذبت على عيسى النصارى
 ويقول أيضا في موضع آخر:

توهمت يا مغرور أنك دين
 تسير إلى البيت الحرام تنسكا
 عليّ يمين الله مالك دين
 ويشكوك جار بائس وخدين⁽³⁾

فهو هنا يشعر بالغرابة والنفور والاشتمزاز من هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم على الأمة وتعاليم الدين فجناياتهم كبيرة، وهم أحق من غيرهم بالسخط والذم لمخالفة الدين وكذا لنفاقهم الاجتماعي؛ فيقول أيضا:

ما أسلم المسلمون شرهم
 ولا النصرارى لدينهم نصروا
 ولا يهود لتوبة هادوا
 وكلهم لي بذاك أشهاد⁽⁴⁾

فهو يكاد يجزم بأن الشر والنفاق متأصل في زوار كل المعابد الدينية يقول:

وبيوت نيران تزار تعبدا
 ومساجد معمورة وكنائس

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص : 48 .

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص : 226 .

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 775 - 776 .

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 233 .

فالصائبون يعظمون كواكبا
 وطباع كل في الشرور حبائس
 أنى ينال أخو الديانة سؤوددا
 ومآرب الرجل الشريف خسائس⁽¹⁾

« ويقول فياختلاف فقهاء المذاهب:

أجاز الشافعي فعال شيء
 وقال أبو حنيفة لا يجوز
 فضل الشيب والشبان منا
 وما اهتدت الفتاة ولا العجوز

ويضيق بنا المجال لو حاولنا سرد ما قاله في المهجوم على أصحاب الديانات المختلفة، لكن ما لا بد لنا من قوله، هو أن المعري لم يهاجم الأديان كما اتهمه كثير من الدارسين وإنما هاجم أصحابها الذين توزعتهم الفرق والأهواء والآراء فأهملوا عقولهم حتى عمت الحيرة والبلاء من وراء ذلك⁽²⁾.
 واختلاف فقهاء المذاهب دليل على وجود اختلاف في الفرق والمذاهب نفسها، فهو يقول في المعتزلة:

ومعتزلي لم أوافقهم، ساعة
 أقول له في اللفظ دينك أجزل⁽³⁾

كما يقول في الأشاعرة:

استغفر الله وأترك ما حكى لهم
 أبو الهذيل وما قال ابن كلابي⁽⁴⁾

وكذا يقول:

وخالفوا الشرع لما جاءهم بتقى
 واستحسنوا من قبيح الفعل ما شرعوا⁽⁵⁾

وفي المرجئة والمعتزلة يقول:

أرجؤا أو اعتزلوا، فإني
 عن مقامكم بمعزل⁽⁶⁾

وفي الصوفية يقول:

صوفية، شهدت، للعقل نسبتهم
 بأنهم ضأن صوف، نطحها يقص⁽⁷⁾

إضافة إلى وجود فرق أخرى هاجمها المعري وأنكر عليها في أشعاره.

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 464.

(2) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي، ص: 171.

(3) - سناء حضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، ص: 45.

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 109.

(5) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 523.

(6) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 690.

(7) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 497.

ثم إن اختلاف المذاهب والعقائد أدى الى ظهور الصراع بينها، وقد انعكس ذلك على الناس مما أدى الى ضعف العقيدة الدينية وقد كتب المعري في لزومياته مصورا إفساد العقائد قائلا:

إذا كان علم الناس ليس بنافع
قضى الله فينا بالذي هو كائن
وهل يابق الإنسان من ملك ربه
ويواصل قوله:

سنتبع آثار الذين تحمّلوا
لقد طال في هذا الأنام تعجبي
أرامي فتشوى من أعاديهِ أسهمي
وهل أعظم الاغصون وريقه
وقد بان أن النحس ليس بغافل
أفيقوا أفيقوا ياغواة، فإنما
أرادوا بما جمع الخطام فأدر كوا

على ساقه من أعبد وإماء
فيا لرواء قوبلوا بظماء
وما ضاق عني سهمه برماء
وهل ماؤها إلّا جني دمءاء؟
له عمل في أنجم الفهماء
دياناتكم مكر من القدماء⁽²⁾
وبادوا وماتت سنة اللؤماء⁽²⁾

كما هاجم المعري إضافة الى أهل الدين الدجالين من المتصوفة، فهو يقول في هذا الشأن:

ترينوا بالتصوف عن خداع
وقاموا في تواجدهم فداروا

فهل زرت الرجال أو اعتميت
كأنهم ثمال من كميت⁽³⁾

فقد هاجم المعري الدجالين من الناس الذين ادعوا التصوف وهم بعيدون عنه، فتزينوا به لخداع الناس والوصول الى قلوبهم وغاياتهم يقول في هذه الأبيات:

سألت منجمها عن الطفل الذي
فأجابها مائة ليأخذ درهما
-ينجمون ولا يدرون لو سئلوا

في المهد كم هو عائش دهره
وأتى الحمام وليدها في شهره
عن البعوضة أنى منهم تقف⁽⁴⁾

فالمنجمون كذابون محتالون هدفهم ابتزاز أموال السذج ضعاف العقول.

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 49.

(2) - فاروق شوشة: لزوميات المعري، صوت إحتجاج وإدانة، مجلة العربي، العدد 534، مايو 2003، ص: 162.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 162.

(4) - يوسف خليف: في الشعر العباسي، نحو منهج جديد، ص: 183.

ولم يكتف أبو العلاء المعري بمهاجمة أهل الدين والمتصوفة فقط بل ذهب الى أبعد من ذلك الى حيث الأدب والشعراء، فعنفهم لأنهم أدخلوا بوظيفة الريادة، فباعوا نفوسهم وسلكوا طريق المكر والخداع والاحتيال من أجل التكسب يقول:

بني الآداب غرتكم قديماً
وما شعراؤكم إلا ذئاب
أضرب لمن تودّ من الأعداء
أقارضكم ثناء غير حق
وما سُمّ الحباب لديّ إلا
كنظم قيل في آل الحباب⁽¹⁾
زخارف مثل زمزمة الذباب
تلصص في المدائح والسباب
وأسرق للمقال من الزباب
كأنّا منه في مجرى سباب

فالشعراء في العصر العباسي وقفوا أذلة أمام أبواب الملوك والأمراء، وسخروا شعرهم لمدح الحكام لغاية ما فإما للتكسب وإما من أجل تشويه حقائق ساطعة يعرفها الجميع على هذا الأمير أو الحاكم لكي يفوز في الأخير بمال أو مرتبة تعلي من شأنه، « لكن أبو العلاء كان يختلف عنهم كل الاختلاف، فهو أبي، كريم النفس، لم يطرق مسامع الرؤساء بالنشيد، ولم يمدح طلبا للجوائز والمكافآت، ومن هنا كان إحساسه المر بالاغتراب عنهم وكان إعلانه في الأبيات السابقة أن مديح هؤلاء الذين أدمنوا على شرب الخمرة حتى الثمالة يساوي في ألمه ووقعه على نفسه السم الزعاف»⁽²⁾ ولم يتوقف غضب المعري على أهل الأدب في الانفصال والبعد عنهم فقط وإنما وصل الى حد السخرية منهم ومن شعراء التكسب يقول:

تكسب الناس بالأجسام فامتهنوا
وحاولوا الرزق بالأفواه فاجتهدوا
أرواحهم بالرزايا في الصناعات
في جذب نفع بنظم أو سجاجات⁽³⁾

ويقول إذا شاع شعر التكسب وانتشر بين الناس، فإن الشعر الحقيقي يصاب بالكساد، ويظهر ذلك في قوله:

يحق كساد الشعر في كل موطن
إذا نفقت هذي العروض الكواسد⁽⁴⁾

«وعلى الجملة، كان أبو العلاء أدبيا ولكنه يمقت أخلاق الأدباء ويذمها ويظهر نفسه منها، فلا يفسق ولا يدعو الى فسق، يقول:

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 114-115.

(2) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 172.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 153.

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 209.

وما أدب الأرقام في كل بلدة

إلى المين إلا معشر أدباء⁽¹⁾

ويقول أيضا:

فرقا شعرت بأنها لا تقتني

خيرا وأن شرارها شعراؤها⁽²⁾

« وهكذا لقد اضطرب كل شيء في نظره اضطرت مقاييس الحياة واختل النظام، ولم يعد ينظر

إلى الحياة إلا هذه النظرة السوداء البغيضة التي فيها خيوط فلسفته التشاؤمية»⁽³⁾.

وكان للنساء أيضا، نصيب وافر من ذم المعري ونقده وأكثر ما كان يثير نقمته عليهن، ما شاع

بينهن من تبرج وغواية وغدر وخيانة للأزواج يقول:

ألا إن النساء حبال غي

بهن يضيع الشرف التليد⁽⁴⁾

ويقول:

أقل الذي تجني الغواني تبرج

يرى العين منها حليها وخضابها

فإن أنت عاشرت الكعاب فصادها

وحاول رضاها واحذرن غضابها

فكم بكرت تسقى الأمر حليلها

من الغار إذ تسقي الخليل رضاها⁽⁵⁾

وقد ذهب المعري إلى أبعد من ذلك حين أقر بأن مجيء البنت فيه بؤس وشقاء ليس منه فائدة

ودفنها أحسن من عيشها يقول:

وإن تعط الإناث فأي بؤس

تبين في وجوه مقسمات

يردن بعولة ويردن حليها

ويلقن الخطوب ملومات

ولسن بدافعات يوم حرب

ولا في غارة متغشمات

ودفن والحوادث فاجعات

لاحداهن إحدى المكرمات⁽⁶⁾

فهي مصدر فتنة يتعرض لها الرجل يقول:

ولا ترجع بإيماء سلاما

على بيض أشرن مسلمات

ألات الظلم جئن بشر ظلم

وقد واجهنا متظلمات

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 157.

(2)- طه حسين: أبو العلاء المعري حياته وشعره، ص: 63.

(3)- أبو العلاء المعري: اللزوميات: ج1، ص: 43.

(4)- ابن العديم: أبو العلاء المعري، ص: 187.

(5)- سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 172.

(6)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 83.

فوارس فتنة أعلام غي لقيتك بالأساور معلّـمات⁽¹⁾

ومواطن الزلل بين الرجل والمرأة كثيرة جدا وكلها ترجع الى الاختلاط، فقد ألح في ألا يدخل عليها من المعلمين إلا الشيخ الفاني أو العجوز الهالك يقول:

ليأخذن التلاوة عن عجوز من اللائي فغرن مهممات

يسبحن المليك بكل جنح ويركعن الضحا متأثمات

فما عيب علي الفتيات لحن إذا قلن المراد مترجمات

ولا يدين من رجل ضريـر يلقنهن آياً محكمات

سوى من كان مرتعشا يدها ولتمته من المتغممات⁽²⁾

ولو اجتمعت النسوة للعبادة واعتكفن في المساجد لأمكن أن يكون اجتماعهن من أسباب الغواية يقول:

وليس عكوفهن على المصلى أمانا من غوارر مجرمات⁽³⁾

ولذلك ولخطورة هذا الاختلاط أفصح أبو العلاء بمنع المرأة من الاختلاط بالأجانب، وأن تشغل نفسها بإدارة شؤون بيتها، وبأن تقوم بالعبادة وبغزل الصوف إن وجدت فراغا، أما العلم فلا حاجة لها به إلا القليل منه كأن تتعلم سورتين قصيرتين من سور القرآن تتلوها في صلاتها، وأما ما فوق ذلك فهو خطر عليها يقول في تائيته:

ولا تحمد حسانك إن توافق بأيد للسطور مقومات

فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلّمات

سهام إن عرفن كتاب لسن رجعن بما يسوء مسمّـمات⁽⁴⁾

إلى أن يقول:

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 161.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 156.

(3) - طه حسين: المجموعة الكاملة، ص: 309.

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 159.

علموهن الغزل والنسج والورد ن وخلو كتابة وقراءة
فصلاة الفتاة بالحمد والإخـ لاص تجزي عن يوسف وبراءة⁽¹⁾

وهو يوصيها بالزواج مع أنه يكرهه، فزواجها صيانة لها من الزلل فيقول:

وما حفظ الخريدة مثل بعـل تكون به من المتحرمات
يحوط ذمارها من كل خطب ويمنعها مصاعب مقرمات⁽²⁾

فدّمه للنساء وكرهه لهم يجعله يكره الارتباط بهم فهذا ما جعله ينفصل عنهن وينعزل ولا يفكر بالزواج بإحداهن.

وعموماً جميع البشر عنده سواء في الفساد وقبح الطباع لأنهم ثمرة فساد وهكذا فكل حي فوق الأرض ظالم وشرير وكاذب والأجدر بالعاقل أن لا يتزوج، أو أن يقترب من امرأة عقيم، لأن النسل جنابة الآباء على الأبناء فتراه يقول:

هذا جناه أبي علي وما جنيت علي أحد⁽³⁾

« لكن هجوم أبي العلاء على النساء، لم يكن أعنف من هجومه على باقي البشر، وهن لسن إلا فئة من الناس الذين شك أبو العلاء في إمكانية العثور على إنسان طاهر بينهم:

أيوجد في الوري نفر طهـارى أم الأقوام كلهم رجوس⁽⁴⁾

« لكن ما رآه منهم من فساد عام وشامل جعل حيرته وشكه لا يدومان طويلاً فأطلق صيحته التي تنفي وجود الإنسان الجيد بين البشر يقول:

قالو: فلان جيد لصديقـه لا يكذبوا ما في البرية جيد⁽⁵⁾

وقال:

(1) - طه حسين : المجموعة الكاملة ، ص : 308 .

(2) - عائشة عبد الرحمن : مع أبي العلاء المعري في رحلة حياته، ص : 270 .

(3) - سميرة سلامي : الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص : 173 .

(4) - أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج2، ص : 462 .

(5) - عائشة عبد الرحمن : مع أبي العلاء المعري في رحلة حياته، ص : 270، و سميرة سلامي : الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص : 173 .

لو غربل الناس كما يُعدموا سقطا لما تحصل شيء في الغرايل
أو قيل للنار خُصِّي من جنِّي أكلت أجسادهم وأبت أكل السرايل⁽¹⁾

« وهكذا تحول المجتمع بطوائفه وطبقاته أمام أبي العلاء الى غرفة تشريح وتحول الناس بين يديه الى مرضى يريد أن يكشف عما في أعماقهم من أدواء وعلل لا ليشفيها ويلتمس لها الدواء، ولكن ليثبت رأيه في فساد المجتمع وأنه لا أمل في إصلاحه وعلاجه

داء هذا الأنام لا يقبل الطب وقدا أراه داء نجسيا⁽²⁾

وعلى الجملة، الناس على اختلاف أشكالهم وأجناسهم وألوانهم هم أنجاس في نظر المعري إذ يقول:

شر أشجار علمت بها شجرات أثمرت ناسا
حملت بيضا وأغربه وأتت بالقوم أجناسا
كلهم أخفت جوانحه ماردا في الصدر خناسا
لم تسق عذاً ولا أرجاً بل أذيات وأدناسا⁽³⁾

ويقول:

وجوهكم كلف وأفواهكم عدى وأكبادكم سود وأعينكم زرق⁽⁴⁾

فهو هنا يذم أهل عصره عامة ويرى الشر متأصلاً، في نفوس البشر مذ خلقوا فقد ورثوه عن جدهم القديم يقول:

والشر في الجذ القديم غريزة في كل نفس منه عرق ضارب⁽⁵⁾
ويؤكد أن الشر طبع في الإنسان خلق معه:

الشر طبع ودنيا المرء فائدة إلى دنياه والأهواء أهوال⁽⁶⁾

ويقول:

والشر في طبع الأنام فان بين شيئاً سواه فليس خيم نحار⁽⁷⁾

ويقول أيضاً:

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 667.

(2) - يوسف خليف: في الشعر العباسي، منهج جديد، ص: 184.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 465.

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 559.

(5) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 76.

(6) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 619.

(7) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 390.

والشر في الخلق طبع لا يزايلاه فقس على خزر في العين أو نجل⁽¹⁾

ويؤكد أنه غرس من قابيل وهاييل، فما كانت الجريمة إلا بسبب الشر الذي فطر عليه أبوهما فيقول:

مضى الزمان ونفس الحي مولعة بالشر من قبل هاييل وقابيل⁽²⁾.

ولذلك انتشر الشر بين الناس وقد صوره المعري بقوله:

والشر حم ومن تسلم له إبل من غارة الجيش يتركها خراب⁽³⁾.

وهكذا فقد أدرك أبو العلاء المعري أنّ الهوة عميقة بينه وبين أهل زمانه، بين إنسان حر التفكير، عزيز النفس، رقيق المشاعر والأحاسيس وبين مجتمع بات فيه الشر متأصل، فمعاناته هاته جعلته يغترب عنهم وينأى، وهذا ما كان واضحا في اغترابه عن أهل زمانه المتمثلين في أهل الدين والنسك والأدباء والشعراء إضافة الى ذم النساء والدجالين الذي لمسنا معاناته منهم وذمه لهم.

وبالاستناد الى الإحصاء دائما إذا ما تتبعنا ديواني المعري المتمثلان في كل من سقط الزند واللزوميات، نجد بعض الكلمات التي تردت كثيرا من خلال أشعاره مثل، مارد، مغرور رياء وغيرها من الكلمات المعبرة عن مدى سخط ودم المعري لهؤلاء الفصائل من الناس المتمثلين في أهل الدين والأدب والنساء والدجالين.

2- الاغتراب عن قيم المجتمع وعاداته وأعرافه السائدة:

« في مجتمع القرن الرابع الهجري، اختلت الموازين وكثرت الالتواءات فتبدلت الأعراف وانحرفت القيم الأخلاقية والاجتماعية، وطغت عليها القيم الفاسدة والعادات الشاذة والغريبة، وأصبح من لم ينحرف مع تيار العصر ينظر حوله، فلا يرى إلا مظاهر التناقضات التي تدعو الى العجب، حتى ليحس أن العقل عبئ على صاحبه وأن الصدق مذمة يؤاخذ عليها، وأن الجهر بالحقيقة اعتداء، وأن الاستقامة في القول والعمل انحراف ما بعده انحراف، وكما شعرت النفوس النبيلة الأصيلة بالاغتراب عن الناس الذي عمهم الفساد من كل صوب كذلك كان الأمر بالنسبة لآفات الوضع الاجتماعي وعيوبه، فهذا شاعر المعرة الكبير أبو العلاء ينتقد ما أصاب مجتمعه من اختلال في القيم بلهجة مليئة بالحزن والتشاؤم واليأس»⁽⁴⁾ لذلك نجد يقول:

فقد فُقدَ الصدق ومات الهدى واستحسن الغدر وقل الوفاء

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 664.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 667.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 111.

(4) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 174.

واستشعر العاقل في سقمه — أن الردى مما عناه الشفاء⁽¹⁾

لقد كره المعري الحياة ولم يجد لها أي معنى خاصة وأنها في عالم ينجح الإنسان فيه من الهدى فيستره ويفاخر بالضلال والغي فيعلن عنه ويرتكبه.
ويقول المعري:

أمّا الهدى فوجدنه ما بيننا — سرا ولكن الضلال جهارا!⁽²⁾

ولا شك أن سوء الحالة الاجتماعية مرتبط بسوء توزيع الثروة، أو بالمعنى الأصح بسوء الحالة الاقتصادية⁽³⁾.

ويحدثنا باحث مدقق عن واقع ذلك العصر الاقتصادي فيقول: كان المال وفيرا كثيرا، والترف والنعيم أقصاه في بلاط الخلفاء وقصور الأمراء والخاصة، أما الشعب فأكثره بئس فقير.
ثم نراه يضيف: « كان هناك طبقتان متميزتان كل التمييز، فالخليفة ورجال دولته وأهولهم وأتباعهم طبقة الخاصة، وهم عدد قليل بالنسبة لمجموع الأمة، وبقية الناس وهم الأكثر طبقة العامة من علماء وتجار وصناع ومزارعين ورعاع، وأغلب هؤلاء فقراء إلا من اتصل منهم بالخلفاء والأمراء⁽⁴⁾ »
وقد أشار المعري الى ذلك التناقض الصارخ في توزيع الثروة فقال:

يعرى الفقير وبالدينار كسوته — وفي صواتك ما إعداده خرف⁽⁵⁾.

ويصف لنا حالة الفقير وبؤسه، فيقول:

والأرض تغلق دونه أبوابها	يغدو الفقير وكل شيء ضده
ويرى العداوة لا يرى أسبابها	فتراه محقوقا وليس بمذنب
هشت إليه وحركت أذناها	حتى الكلاب إذا أرادت ذابزة
نبحت عليه وكشرت أنيابها ⁽⁶⁾	وإذا رأت يوما فقيرا بئسا

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 54.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 314.

(3) - ينظر سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، ص: 41.

(4) - عبد القادر زيدان: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري، ص: 182.

(5) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 543.

(6) - مصطفى صالح كشاف: مصادر دراسة أبي العلاء المعري، مطبعة العلم، دمشق، 1978، ص: 326.

فالفقير إذن له تأثير كبير على نفسية الإنسان « وقد استعان الباحثون بعلم النفس وهم يتحدثون عن عقدة الفقر، وكيف يكون تأثيرها على الأفراد ودفعها إليهم بحثا عن الطريق إلى الثراء، في محاولة لتحقيق نوع من المساواة النسبية تبعا لما يحققون من ثروة تأتي بها غزواتهم المستمرة»⁽¹⁾.
وقد شعر أبو العلاء المعري بالظلم في توزيع الثروات، ويفسر مشاهد الظلم بقوله:

غنى زيد يكون لفقر عمرو
وأحكام الحوادث لا يقسنه⁽²⁾

«فالخيرات التي تنتجها الأرض وتنتجها الحضارة، كلها محصورة لا يمكن أن تتفاوت حظوظ الناس منها إلا إذا كان الظلم مصدر التفاوت فإذا ظفر زيد بالغني، فلا بد أن يضطر عمرو إلى الفقر، وهو يكره هذا الظلم فيقول»: :

والظلم عندي قبيح لا أجوزه
ولو أطعت لما فاءوا بأجلاب⁽³⁾

والأغنياء بخلاء مغتصبون لحقوق الفقراء، والناس مع ذلك يجلوهم ويعظموهم:

وفي المعاشر من لو جاز من ذهب
طود الضنى بإعطاء المثاقيل

أجلوا مكثروا وتنصفوه
وعابوا من أقل وأتبوه

لبي الغني بنو حواء من طمع
ولوعاهم فقير ما أجابوه⁽⁴⁾

ومعظم الناس عند المعري غير عادلين، أو غير منصفين، لا يعطون صاحب الحق حقه، أو يبالغون

في الثناء على من لا يستحق، لقد ضاق بأمثال هؤلاء واشتاق إلى بشر يعطون الحق لأصحابه يقول:

من لي أن أقيم في بلد
أذكر فيه بغير ما يجب

يظن بي اليسر والديانة والعدل
م وبيني وبينها حجب

أقررت بالجهل وادعى فهمي
قوم فأمرني وأمرهم عجب⁽⁵⁾

وقد انتشرت في هذا العصر بعض القيم كنقص الثقة في المجتمع _ بحسب رأي المعري _ فوجود

إخوان الثقة صعب كصعوبة رجوع الصبا بعد الشيب يقول:

وليس صبا يفاد وراء شيب
بأعوز من أخي ثقة يفاد⁽⁶⁾

(1) - عبد القادر عبد الحميد زيدان: التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص: 113.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 794.

(3) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 179، و أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 109.

(4) - يوسف خليف: في الشعر العباسي نحو منهج جديد، ص: 182.

(5) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 78 - 79.

(6) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 64.

ويقول:

عصا في يد الأعمى يروم بها الهدى أبرله من كل خدن وصاحب⁽¹⁾

فمعرفته بإنسان عصره وصلت به الى حد فقدان الثقة الذي عبر عنه بهذا القول.

وانتشرت الغيبة في المجتمع وقد أعابها المعري في خطابه مع من يعتابه هو شخصيا فيقول:

روبدك أيها العاوي ورائي لتخبرني، متى نطق الجماد⁽²⁾

فيقول في هذا البيت، أيها العاوي ورائي كما يعوي الكلب خفف من عوائك وأخبرني متى

جرت العادة بأن ينطق الجماد فتكون من الناطقين، ومتى تكلم الأموات فتكون من المتكلمين.

كما ساد في هذا العصر الجهل كثيرا حتى أصبح الناس يصدقون ما ترفضه العقول:

قد صدق الناس ما الألباب تبطله حتى لظنوا عجوزا تحلب القمر

أناقة هو أم شاة فيمنحها عسا تغيث به الأضياف أو غمرا⁽³⁾

« ولعل أقوى صور الاغتراب التي نلمحها عند أبي العلاء صورة اغترابه الفكري وهذا أمر بديهي بالنسبة

لمفكر كأبي العلاء، كان دائما يحتكم الى العقل في كل ما يناقش من قضايا وأفكار جاءت بها الرواية من

زمن سالف، تقبلها معاصروه بلا مناقشة أو تمحيص أو رؤية للحياة أفرزها عصره المضطرب فجاءت هي

كذلك أكثر ما تكون من الاضطراب

لقد صدئت أفهام قوم فهل لها صقال ويحتاج الحسام الى الصقل

وكم غرت الدنيا بنيتها وساءني مع الناس مين في الأحاديث والنقل⁽⁴⁾

« فالمعري يؤمن بقدرة العقل على الإبداع المتجدد بتجدد الحياة ويسخر من أولئك الذين يقولون في

كل زمان، ما ترك الأول للآخر شيئا، وقد عبر عن إيمانه هذا بقوله :

إني وإن كنت الأخير زمانه لأت بما لم تستطعه الأوائل⁽⁵⁾

ويشير إلى المقلد الذي يعتمد النقل دون العقل فيقول:

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 1، ص: 101.

(2) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 65.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 1، ص: 335.

(4) - عبد القادر زيدان: قضايا العصر في أدب أبي العلاء، ص: 187، أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 2، ص: 653..

(5) - عائشة عبد الرحمن: مع أبي العلاء في رحلة حياته، ص: 58، وينظر أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 106.

في كل أمرك تقليد رضيت به حتى مقالك ربي واحد أحد⁽¹⁾

« فلا شك أن يغترب أبو العلاء وصفه صاحب منهج في الحياة، يقوم على العقل ويهتدي به كل أمر عن أناس غلبت عليهم طباعهم ورغباتهم، فصاروا أسرى لهذه الطباع، تقودهم الى حيث تريد كما تقاد وتسحب بهيمة الأنعام

إذا ما أشار العقل بالرشد جرهم إلى الغي طبع أخذه أخذ صاحب⁽²⁾

« وعندما يغيب العقل، وتصاب الذات الإنسانية بهذا القدر المدمر من التسطيح والضياع، تتكشف لنا أزمة الإنسان المفكر، فنراه شقيا باغترابه، شقيا بفشله من العثور بمن يتفهم لما يقول: حتى نراه يلتزم الصمت فيما التزم من أشياء:

رأيت سكوني متجرا فلزمته إذا لم يفد ربما فلست بخاسر⁽³⁾

والمتفحص في أفكار أبي العلاء يراه غريبا متفردا في نظرتة للمجتمع، ناقدا لكل ما يتخبط فيه أهل زمانه من فساد في العقائد والملل، وإهمال لفرائضه وسخرية من تعاليمه وقيمه الروحية وهذا ما يعكسه ديوانه اللزوميات فهو يقول متلهفا على ما أصاب الدين من اضمحلال وذمور يقول:

لهفي على ليلة ويوم تألفت منهما الشهر
وألفيا عنصري زمان ليس لأسراره ظهور
قد أصبح الدين مضمحلا وغيرت آية الدهور
فلا زكاة ولا صيام ولا صلاة ولا ظهور⁽⁴⁾

« وفي هذه الأبيات أيضا، شكوى مما شاع في عصره من بغاء، ومجون ودعارة ويسخر أبو العلاء المعري سخرية لاذعة مما شاع في مجتمعه من إيمان بالأوهام والخرافات، وتصديق الأقاويل السخيفة التي تجعل للنجوم والكواكب تأثيرا كبيرا على الناس في سعدها ونحسها يقول:

تشاءم بالعواطس أهل جهل وأهون إن خفتن وإن عطسنه
وهان على الفراقد والثريا شخوص في مضاجعها درسنه

(1) - أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 1 ، ص : 218.

(2) - عبد القادر زيدان: قضايا العصر في أدب أبي العلاء، ص : 189، وأبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 1، ص: 101.

(3) - عبد القادر زيدان: قضايا العصر في أدب أبي العلاء، ص : 189، وأبو العلاء المعري: اللزوميات ، ج 1، ص : 359.

(4) - أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 1 ، ص : 295.

وما حفلت حضار ولا سهيل بأبشار يمانية يد سنه⁽¹⁾

وفي أمكنة أخرى يوجه نقده وسخريته أيضا الى ما عرف في مجتمعه من إيمان بالتنجيم يقول:

ومرأة المنجم وهي صغرى أرتة كل عامرة وقفـر⁽²⁾

« فقد أنكر أبو العلاء هذه الحياة من حوله، ودعا الى إصلاح المجتمع وتغيير المنكر فيه»⁽³⁾ وهذا ما جسده ديوانه اللذان يعكسان اغترابه عن مجتمعه وقيمه وعاداته، فوجدنا فيه نغمة التلهف والتحسر والشكوى، كما وجدنا السخرية والرفض والثورة على هذه الأوضاع وهذا التناقض الحاصل في الحياة الاجتماعية والاقتصادية « فإذن كان طبيعيا، وهذا حال عصر أبي العلاء، أقل زمانه " أن نراه يعاني من اغترابه فيه، ونقول فيه لأنه لم يشأ أن يرحل عنه الى بلاد غير بلاده ومن ثم كانت معاناته الدائمة وعذابه المقيم، كما جاء في قوله :

إنّ زماني برزاياه لي صيرني أمرح في قـده⁽⁴⁾

« وأيا كانت نوعية ذلك المرح المقيد، أو القيد كان طبيعيا أن يغترب أبو العلاء وأن يحدثنا عن صور اغترابه التي هي في حقيقتها إدانة لعصره، وكشف عما به زيف وانحطاط»⁽⁵⁾.

وعلى اعتبار أن الإحصائيات التي قمت بها في هذا الموضوع لدوانيه سقط الزند و اللزوميات غالبا ما تتعدى الكلمة مثلما قال (عبد الكريم حسن): « لا تقود الى حقائق نهائية، فالموضوع يتعدى الكلمة غالبا بشموليته وامتداده»⁽⁶⁾ فإننا نكتفي هنا ببعض الكلمات التي ذكرت في ديوانيه بشأن هذا الموضوع وترددت كثيرا منها مثلا: شر، غواة، رياء، حيلة، مكر، لؤم، ذباب، ذئاب، بؤس، داء، أدناس، أذيات، دنايا، ضلال، كلاب، ظلم، جهل، الغي العاوي، رياء، مغرور، مارد وغيرها من الكلمات المستعملة في كلام المعري ومن العبارات نجد مثلا: جين بشر، أم الأقبام كلهم رجوس، لا يكذبوا ما في البرية من جيد، فقد فقد الصدق ومات الهوى داء هذا الأنام لا يقبل الطب، استحسن الغدر وقل الوفاء، شر أشجار علمت بما شجرات أثمرت ناسا، بل وجوههم كلف وأفواههم عدى، وأكبادهم سود وأعينهم زرق.

(1)- سميرة سلامي، الاغتراب في لشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 180-181، و أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 796.

(2)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 375.

(3)- مصطفى البشير قط: قراءات في النقد والأدب، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2008، ص: 82.

(4)- عبد القادر زيدان: قضايا العصر في أدب أبي العلاء، و أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 207.

(5)- عبد القادر زيدان: قضايا العصر في أدب أبي العلاء، ص: 187.

(6)- عبد الكريم حسن: المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق، ص: 51.

إذن - وحسب ما يلاحظ - أن هذه الكلمات وهذه العبارات كلها تعكس نظرة المعري الى من حوله وهي نظرة كلها تشاؤم وحيرة خاصة وأنهم في نظره ما هم إلا وشاة ومكرة يميزهم الظلم والجهل واللؤم والشر والغد.

فالمعري ولأنه وجد صوراً مختلفة في مجتمعه تعكسها تصرفات الناس من حوله كالجهل والظلم والفساد والانحلال الخلقي والشرك إضافة الى نقص الثقة والفقر اللذين سادا بدرجة كبيرة في المجتمع، كل هذه التصرفات والسلوكيات جعلت المعري يعتزل المجتمع مخافة أن تلتصق هاته السلوكيات به وتجعله واحداً من مجتمعه، فهروبه واضح من خلال أشعاره فهو يحاول دائماً أن يعزل عنهم وأن لا يبدو مثلهم في تعامله مع الناس وفي تصرفاته التي يحرص من دون شك على تحصينها من كل الآفات وتهدئتها إن أخطأت فاغترابه عن قيم مجتمعه وعاداته السائدة واضحة من خلال ديوانيه سقط الزند واللزوميات وهذا ما عمدنا إلى تفسيره فيما سبق عن طريق الإحصاء الذي أجرى حول شعره.

3- الاغتراب السياسي:

لقد عاش شاعرنا - أبو العلاء المعري - في عصر سادت فيه الاضطرابات والفتن فكانت فترة سوداء « تصدعت فيها السيادة على مذبح الشهوات التي كانت تضطرم في صدور المتغلبين من الديلم ومن إليهم من الأعاجم المتسلطين لقد فسدت الحياة السياسية وفسدت الحياة الاجتماعية حتى أصبحت البلدان العربية، وكأنها على بركان، دول مختلفات المنازعات والأهداف قد انتشرت في الرقعة الإسلامية الكبرى، نزعات فردية في إهاب من المطامع الصارخة، تجيش في كل صدر، جمعيات سرية تستهدف غابات مريية مذاهب جديدة هدامة ترمي الى نزعات سياسية خطيرة»⁽¹⁾.

فهذا الفساد وهذا الانحلال الخلقي والتحلل من المعايير والاضطرابات في الأوضاع والقيم الإنسانية هي كلها صفات ومميزات لذلك العصر الذي عاش فيه المعري، وقد تجسد أكثر ما تجسد في الملوك والأمراء والوزراء والولاة وغيرهم من رجال الدولة الذين مارسوا أبشع الطرق المتمثلة في الظلم والجور والاستغلال للرعية، حيث أدى الى حدوث هوة كبيرة بين الحاكم والناس وكان لا بد للشعب الذي ذاق الأمرين من ظلم حكامه، ورآهم ينغمسون في الرذيلة من أن يفقد ثقته بهؤلاء الحكام وأن يعلن بالتالي سخطه العنيف على سياسة الدولة⁽²⁾.

وقد عبر شعراء العصر العباسي عن اغترابهم السياسي بأساليب مختلفة وطرق شتى وهذا ما نجده عند أبي العلاء المعري، فهو « أديب حساس وشاعر عميق التفكير وفيلسوف حُرذ ونظرة نافذة، رأى

(1) - ابن العديم: أبو العلاء المعري، ص: 166.

(2) - ينظر سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 181.

وطنه نبها للأهواء والشهوات ورأى البلاد العربية وقد انتهت الى ما انتهت إليه من الضعف والاضطراب والفوضى، بديهي أن يؤثر ذلك في أدبه، وأن تشيع روح السخرية في هذا الأدب وأن يقسو قسوة مرة على من يظهرون بصور من ملائكة الرحمان بينما هم أبالسة»⁽¹⁾ إنهم الحكام والساسة، الذين يخدعون الناس بأقوالهم وأساليبهم.

فالمعري له رأي واضح في السياسة، يظهر من جراء قوله:

وإذا الرئاسة لم تعن بسياسة
عقلية خطئ الصواب السائس⁽²⁾

فالسياسي يجب أن يمتلك عقلا كبيرا يسير به أمور الدولة لكي تكون سياسته صائبة وعادلة، ولكن هذا لم يتوفر في رجال الدولة وحكام عصره، هذا ما عمق اغترابه عنهم وجعله يتأفف منهم. فهو يقول:

يسوسون الأمور بغير عقل
فينفذ أمرهم ويقال: ساسة
فأف من الحياة وأف مني
ومن زمن رئاسته خساسة⁽³⁾

فلو حكموا عقولهم لميزوا بين الباطل والحق ولميزوا بين الظلم والعدل وأكثر شيء كان يثير سخط المعري هو ظلم الحكام واستغلالهم للرعية وتحميلهم للضرائب والمكوس والغرامات بسبب وبدون سبب فهو يقول في ذلك:

ورأى ملوكا لا تحوطه رعية
فعلام تؤخذ جزية ومكوس⁽⁴⁾

فالمملوك أصبحوا عبيدا لشهواتهم، أما الشعب الضعيف فتفرض عليه هذه الغرامات وتسلط عليه الديون من كل صوب يقول:

وجدت الناس في هرج ومرج
غواة بين معتزل ومرجى
فشأن ملوكهم عزف ونزف
وأصحاب الأمور جباة حرج

ويقول:

أتعجب من ملوك الأرض أمسوا
للذات النفوس عبيد قن⁽⁵⁾

(1) - ابن العديم: أبو العلاء المعري، ص: 173.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 2، ص: 464.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 2، ص: 466.

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 1، ص: 43.

(5) - ابن العديم: أبو العلاء المعري، ص: 177.

فهذه الأوضاع التي عرفها الناس في هذا العصر من انحلال وفقر وغرامات جعلت المعري يفكر في الهجرة لأي بقعة أخرى تخلوا من هذا الفساد ولكنه لم يجد حلا لهذا المأزق الذي تورط فيه من دون قصد فكل البلدان العربية تقريبا تعاني ما يعانيه المعري في بلده يقول:

كيف التخلص والبسيطة لجة والجو غيم بالنوائب يسجم
فسد الزمان فلا رشاد ناجم بين الأنام ولا ضلال منجم⁽¹⁾

ولأن الشاعر لم تتح له فرصة الهروب إلى بلاد أخرى، لجأ إلى اعتزال الناس ولزوم بيته والاكتفاء بالنظر من بعيد لجوانب الحياة خاصة منها الاجتماعية والسياسية، هاته الأخيرة التي خضعت إلى ذم ومهاجمة كل شيء فيها بداية من الحكام إلى سياستهم المتبعة فهو يقول عن هذه الحياة السياسية المضطربة:

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها⁽²⁾

ويقول:

وتخالف الرؤساء يشهد مقسما أن المعاصر ما اهتدت لصوابها⁽³⁾

ويقول عن فقدان العدل:

- فظالم آخذ مالا يحل له ومنصف ظل فيهم ليس ينتصف⁽⁴⁾
- أرى حلبا حازها صالح وجال سنان على جلقا⁽⁵⁾

فقد خانوا الأمانة ولم يقوموا بواجبهم تجاه رعاياهم:

يجوز فينفي الملك هن مستحقه فتسكب أسراب العيون الدوامع⁽⁶⁾

يفترض أن يكون الحكام خير قدوة، وهذا ما طمح إليه المعري، ولكن عصره كان حافلا بالحكام الذين هم شر قدوة يقول:

بكل أرض أمير سوء يضرب للناس شر سكه⁽⁷⁾

(1)- ابن العديم: أبو العلاء المعري، ص: 174.

(2)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 1، ص: 43.

(3)- سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، ص: 40.

(4)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 2، ص: 542.

(5)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 2، ص: 576.

(6)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 2، ص: 533.

(7)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 2، ص: 598.

« فطبيعي أن نرى المعري ينتقد سياسة الحكام ويدعوا الى العدل والإنصاف، ويسخط على الظالمين وهو الذي رأى وطنه نهب للأهواء والشهوات، ورأى بلاده تتخبط في مشاكل لا نهاية له»⁽¹⁾.
فقد قسى على الملوك والأمراء وانتقد سياستهم خاصة بعدما وجد أن هؤلاء الحكام لا هم لهم سوى تحقيق المتعة واللذة، فهي شغلهم الشاغل يسعون دائما الى الوصول إليها عن طريق الخمر والعبث بالنساء وغيرهم من الوسائل المستعملة في تحقيق مثل هاته الأمور يقول:

ملوكنا الصالحون كلهم زير نساء يهش للزيرة⁽²⁾

كما وجه نقده وسخطه لأولئك الذين تبعوا القضاة وساروا مثلهم فقبلوا الرشوة وجاروا في أحكامهم ويسميهم بالعدول فيقول:

في البدو خراب أذواد مسومة وفي الجوامع والأسواق خراب
فهؤلاء تسموا بالعدول أو التـ جار واسم أولاك القوم أعراب⁽³⁾

ويقول:

عدول لهم ظلم الضعيف سجية يسمون أعراب القرى والجوامع⁽⁴⁾

« وقد تأثر أبو العلاء من غير شك بالمذاهب المختلفة القائمة في عصره، فدرسها وجادل فيها، ولكنه لم يستق منها لنفسه إلا خلاصتها وأدناها الى مزاجه»⁽⁵⁾ فقد سئمت نفسه هذه المعارك والمنازعات التي كانت تقوم بين أصحاب هذه الفرق إذ « كان يرى في هذه المذاهب الشائعة التي سادت عصره وسيلة للسيطرة والحكم فما كان أصحابها يقصدون المثل العليا في مذاهبهم التي ابتدعوها ودعوا إليها»⁽⁶⁾ لذلك لم ينحاز الى أحد « ولم يمالى أحدا لقد اتهم جميع السياسيين بالجور والمكر بغية جلب الدنيا إليهم، يستوي في ذلك الحاكم السني والإمام الشيعي وزعماء الحركات الثورية كصاحب الزنج وزعيم القرامطة .

يا ملوك البلاد فزتم بنسئ العمر والجور شأنكم في النساء
يرتجي الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء

(1) - سناء حضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، ص: 39.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 348.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 70.

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 533.

(5) - سناء حضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، ص: 40.

(6) - ابن العديم: أبو العلاء المعري، ص 179. سميرة سلامي، الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 186.

كذب الظن لا أمام سوى العقل
مشيرا في صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحم
مة عند المسير والإرساء
إنما هذه المذاهب أسبا
ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء⁽¹⁾

فإذن المنطلق واحد عند جميع السياسيين في البدء يطلقون الشعارات التي ترفع من معنويات الشعب يعدون بالعدل والمساواة وإعطاء الحقوق وتلبية كل المتطلبات وما إن يصلوا الى الحكم حتى ينقلبوا رأسا على عقب، ولذلك يقول المعري لا يوجد إمام للناس يمكن الاطمئنان إليه سوى العقل الذي يميز به بين الخير والشر وبين الظلم والعدل، ولكنه يبقى مجيء هذا الإمام ليرفع الغبن ويأتي بالعدل فيقول:

متى يقوم إمام يستقيد لنا
فتعرف العدل أجال وغيطان⁽²⁾

« لقد شعر أبو العلاء بأن الأرض ملئت جورا ولم ير حاكما، في زمنه استطاع تحقيق العدل، فيئس من الساسة في كل زمان ومكان، وعند جميع الأقوام والأجناس، ورأى أنهم شر الناس، وهكذا نجد أن ما رآه أبو العلاء من فساد وانحلال في الحياة السياسية في القرن الرابع لم يؤد فقط الى إحساس بالاغتراب عن حكام عصره بل جعله يكره الطبقة الحاكمة والزعماء السياسيين في كل زمان ومكان»⁽³⁾ وبعد هذه الحوصلة التي قدّمها حول موضوع الاغتراب السياسي وجدت بعد القيام بالإحصاء استنادا الى ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بعض العبارات التي تميز وتخدم هذا الموضوع من مثل: أمير سوء، أف من زمن رئاسته حساسة، جزية ومكوس، ظلموا الرعية واستجازوا كيدها، فظالم وآخذ ما لا يحل له، ملوكنا زير نساء، عدول لهم ظلم الضعيف سجية، وهي كلها تدور حول الظلم والجور وعدم العدل بين الناس التي من المفروض أن تكون من أوليات الحكام والرؤساء.

(1) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 186، وأبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 51.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 778.

(3) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 187.

1- الاغتراب عن الوطن عند أبي العلاء ودواعيه:

إن موضوع الاغتراب تؤدي إليه دوافع سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية، وفيه أنواع كثيرة منها الاجتماعي والاقتصادي والزمني والمكاني هذا الأخير الذي ظهر ومنذ العصر الجاهلي عانى منه الكثير وقد يلجأ إليه الفرد بمحض إرادته أو اضطرارا نتيجة حدث معين يحدث له في المجتمع يضطره إلى هجرة وطنه، وهذا ما حدث بالفعل لدى الشعراء في هذا العصر - العصر العباسي - حيث اضطرتهم الظروف و الأحوال إلى هجرة أوطانهم وهذا ما نستشفه مثلا عند « الشاعر الموصلبي (أبو عثمان الخالدي) الذي اضطره الفقر الى هجرة وطنه و التنقل من بلاط لآخر ثم الرجوع إليه بعد زوال الفاقة والعوز يقول:

إنا لنرحل و الأهواء أجمعها لديك مستوطنات ليس ترتحل
لكن كل فقير يستفيد غنى دعاة شوق إلى أوطانه عجل
وكل غاز إذا حملت غنيمته فإن أثر شيء عنده القفل

فهو يصرح بأن الفقر هو السبب الوحيد في هجرته لوطنه، وحين زال السبب، أثر العودة ، فقد ناداه داعي الشوق، لأن الوطن هو أغلى ما في الوجدان، استطاع الإنسان تأمين أسباب الحياة»⁽¹⁾.
فالتنقل إذن فيه محاسن كثيرة وإيجابيات جمّة لذلك حثنا الله سبحانه وتعالى عليه حيث يقول:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾⁽²⁾

فبالرغم من المشقة والمعاناة التي يتكبدتها إلا أنه في الاغتراب فائدة تعود على هذا الإنسان النازح ، وقد توالى أشعار المغتربين في هذا العصر إضافة إلى أبي عثمان الخالدي نجد أيضا (بن بابك) و(بن حماد البصري) و (المتني) و (أبا فراس الحمداني) و (الشريف المرتضي) وأبا العلاء المعري هذا الأخير الذي تجلّى عنده موضوع الاغتراب بصفة ملفتة للإنتباه مما جعل منه ظاهرة فريدة في الشعر العربي، و مما ساعد على تفردّه غربته الدائمة، وإحساسه بالانفصال والانزغال عن المجتمع تارة وعن الوطن تارة أخرى يقول:

(1) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 123- 124.

(2) - سورة الملك/ 15

أَعَنُ وَخَدَ الْقِلاصِ كَشَفْتَ حَالاً
وَدُرّاً، خَلَّتْ أَنْجَمُهُ عَلَيْهِ
ومن عند الظلام طلبت مالا
فهللاً خلتن به ذبلاً⁽¹⁾

فالشاعر هنا يخاطب نفسه ويعنفها على كثرة أسفاره وترحاله، وينكر عليها ما توهمته من إمكان نيل المال من عند الظلام، فليس الظلام موضعاً لطلب المال ثم يتم ما بدأه في البيت الأول من تعنيف نفسه على السفر الذي لم يصل به الى تأمله.

كما نجده يبين في قصيدته (كم بلدة فارقتها ومعاشر) كيف أنه تنقل بين البلدان والأقوام الذين اعتاد توديعهم يذرفون الدموع عليه ويأسفون لرحيله يقول:

كم بلدة فارقتها ومعاشر
وإذا أضاعني الخطوب فلن أرى
يذرون من أسف علي دموعاً
لو داد إخوان الصفاء مضيعة
خاللت توديع الأصادق للتوى
فمتى أودع خلّي التوديعاً⁽²⁾

كما أنه في موضع آخر من سقط الزند يتكلم عن المناطق التي مر بها للوصول الى هدفه فهو يقول مثلاً بأنه وفد الى هذه البلاد أول الفجر بعد أن سار طيلة الليل في قفار لا يسكنها إلا الذئاب والبقر الوحشية وذلك يظهر في قوله:

وبلاد وردتها، ذنب السرر
حان بين المهاة والسرحان⁽³⁾

فهذا البيت يدل على ترحاله وتنقله من منطقة لأخرى.

وهو في موضع آخر يحدثنا عما تجشم من مشاق السفر في المهمة القفر مع مخاوفه ووحشيته يقول:

سارت فزارت بنا الأنبار سائمة
ورُبَّ ظُهرٍ وصلناها على عجل
طافوا بها فأنا خوفاً بجعباع
وللذراعين أخرى ذات إسراع
بعضرها، في بعيد الورد لماع
في مهمة كصلاة الكسف شعشاع
وما جهرنا ولم يصدح مؤذنا
من خوف كل طويل الرمح خداع⁽⁴⁾

كما أنه يبين لنا المناطق التي مر عليها من الأنبار والقادسية الى بادية الشام الى أن وصل الى

بغداد.

(1) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 21.

(2) - أبو العلاء المعري: شرح ديوان سقط الزند، شرح وتعليق، ن، رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1987، ص: 190.

(3) - أبو العلاء المعري: شرح ديوان سقط الزند، ص: 92.

(4) - عائشة عبد الرحمن: مع أبي العلاء المعري في رحلة حياته، ص: 122-123.

وقد كانت من عادة العرب قديماً أنهم أثناء تنقلهم الى مناطق أخرى غير بلدانهم التي يعيشون فيها يتخذون الناقة أنيساً لهم في رحلتهم هاته منذ بدايتها الى نهايتها، وقد شهد المسافر مع ناقته أحداثاً جمّة في طريقه المحفوف بالمخاطر والمتعب في أحيان كثيرة من شدة الجوع والعطش وطول الطريق مما يجعل الراحلة تضعف وتهمزل وهذا ما نلاحظه لدى شاعرنا أبي العلاء وراحلته التي أضناها طول السفر بعدما كانت قبل انطلاقتها في السفر كالنخيل في سمنها وعظمتها، ولكن السفر أنحلها حتى صارت كالعرجون في تقوسها ونحوها يقول المعري:

وكانت كالنخيل، فظل كل ومشبّهه، من الضمر الإهان⁽¹⁾

ويقول في بيت آخر:

وأعيس، لو وافى به خرت مخيط لأنفذه من ضميره وانضمامه⁽²⁾

فقوله هذا دلالة على أن الجمل هزل من السفر حتى أصبح بالإمكان إيلاجه في ثقب إبرة. وصفة التنقل والترحال هاته غربته عن أهله ووطنه وجعلته يتحسر لذلك نجده يقول:

ويحمل من أرض لأخرى وما درى فواها له بعد البلى يتغرب⁽³⁾

ويقول في موضع آخر من قصيدته (كلمت فزد على النعمان ملكا):

ولو لم ألق غيرك في اغترابي لكان لقاءك الحظ الجزيل⁽⁴⁾

ففي هذا البيت دلالة على أنه اغترب ووجد في غربته أناساً آخرين غير الذين كان يعرفهم.

ولأبي العلاء المعري رحلات في حياته تتراوح بين حلب واللاذقية وطرابلس وبغداد، هذه الأخيرة استوقفتنا كثيراً في أشعاره، فقد ذهب إليها في مرحلة شبابه عكس الرحلات الأخرى التي قام بها وهو في صغره من أجل التعلم والتربية والتدريب.

فبعده عن وطنه المعرة وارتحاله الى بغداد جعله يحس بالغربة والنوى وقد دفعته إليها أسباب ودواعي عدة اختلف الباحثون في تحديدها وتحديد عدد المرات التي ذهب فيها المعري الى بغداد، « وقد جاء في وفيات الأعيان، أن المعري قصد بغداد مرتين، وكان في الخامسة والثلاثين من عمره ثم

(1) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 47.

(2) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 101.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 65.

(4) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 272.

عاد إليها بعد عام تقريبا أمّا مؤرخوه الآخرون فيجمعون على أنه لم يأتها سوى مرة واحدة ومكث فيها سنة وسبعة أشهر»⁽¹⁾.

والذي يعنينا على كل حال هو أنه سافر الى بغداد ناضج الشباب فتي الرجولة ولكن لم سافر؟ ما هو سبب خروجه وهجرته من وطنه المعرة؟

فقد اختلف - مثلما تحدثنا- العلماء في تحديد دواعي اغترابه وهجرته لبلده فمنهم من يقول: «أنه أُوذي في وقف له، فرحل الى بغداد متظلما من أمير حلب، لكن أبو العلاء لم يشير الى هذا الوقف قط فيما أطال من حديث عن رحلته»⁽²⁾.

وهناك من رجّح بأن الرحلة كانت متعلقة بالمال، ولكن المؤرخ "ابن العديم" نفى هذا الأمر عنه بقوله: « ولم يرحل الى بغداد، لطلب دنيا ولا رُفد واستشهد بأبيات أبي العلاء المعري:

أإخواننا بين الفرات وجلق يد الله لاخبرتكم بحال
أنبئكم أي على العهد سالم ووجهي لما يتنذل بسؤال
وأني تيممت العراق لغير ما تيممه غيلان عند بالال
فأصبحت محسودا بفضلي وحده على بعد أنصاري وقلة مالي⁽³⁾

فهو يؤكد من خلال هذه الأبيات أنه من المحال أن يتنذل وجهه بسؤال.

فمهما كانت وجهات نظر المؤرخين واختلافهم حول أسباب رحيل المعري وابتعاده عن بلده إلا أننا بالتأكيد سوف نتفق في أمر ما يتمثل في أن الحياة التي كان يعيشها المعري في بلده المعرة هي التي جعلته يهجر بلده وينأى عنها، « فحين ثقلت عليه حياته في المعرة آثر أن يرحل الى بغداد »⁽⁴⁾ فقد ضاقت عليه بلده وذلك لسببين هما:

1- « اضطراب الحياة السياسية في بلاد الشام، فالحدود الشمالية معرضة للخطر البيزنطي لاسيما بعد زوال حكم سيف الدولة الذي كان حامي تلك الثغور والمدافع ببطولة عنها، فلا أمل ولا استقرار.

2- طموح أبي العلاء الذي لا يُحَدُّ وتصميمه على أن يبرهن للمبصرين والمتربعين على عرش الجاه والعلم أنه ليس دونهم كفاية ومقدرة هذا من جهة، ومن جهة ثانية لإرضاء نفسه وإقناعها بأن

(1) خليل شرف الدين: في سبيل موسوعة فلسفية، أبو العلاء المعري مبصرين عميان، دار مكتبة الهلال، (د، ط)، 1995، ص: 81.

(2) عائشة عبد الرحمن: مع أبي العلاء في رحلة حياته، ص: 115.

(3) عائشة عبد الرحمن: مع أبي العلاء في رحلة حياته، ص: 115.

(4) عبد الله الطاوي: القصيد العباسية قضايا واتجاهات، ص: 344.

مثله لا يقعه عمي مادي، ثم إنَّ بغداد كانت قطب الرحي كما يقولون تستقطب كل طالب مجد وشهرة وعلم ففيها تفاعلت الحضارات الثلاث وتمازجت جميع ثقافات الدنيا فمن لم يرها فكأنه ما رأى الدنيا ولا رأى الناس على حد قول بعضهم فكيف لا يزورها أبو العلاء»⁽¹⁾

فإذن مهما كانت الأسباب والدواعي التي جعلته ينأى عن بلده، إلا أنه كان يكره الابتعاد عن وطنه الأم في حقيقة الأمر وهذا ما نلمسه في معاتبته لحاله حين هجر الشام ووطنه الى المغرب يقول:

علام هجرت شرق الأرض حتى	أتيت الغرب تختبر العبادا؟
فإن تجد الديار كما أراد الـ	غريب فما الصديق كما أرادا
إذا الشعرى اليمانية استنارت	فجدد للشامية الودادا
فللشام الوفاء وإن سواه	توافى منطقاً غدر اعتقادا
ظنعت لتستفيد أحبا وفيا	وضيعت القديم المستفادا ⁽²⁾

فهو يدعو إلى العودة إلى الشام والتمسك به والوفاء له لأن العيش لن يطيب للإنسان إلا في وطنه وبين أهله وناسه وأصدقائه فمن هذه الأبيات يظهر أن هجرة المعري عن بلده لم يكن اختياراً وإنما كان اضطراراً نتيجة لتلك الظروف التي عاشها.

هكذا إذن كان لموضوع الاغتراب المكاني صدى واسع، فقد اكتسب طبيعته وأبعاده من خلال ظروف وواقع الشاعر المعيش وتفاعله معهما، وبالتالي انعكس على لغة ديوانيه وعلى فضائه المعجمي، ولكي أوضح ذلك أكثر سوف أفرد عند الجدول الإحصائي المستقى من ديواني المعري المتمثلين في سقط الزند إضافة إلى اللزوميات .

(1) - خليل شرف الدين : في سبيل موسوعة فلسفية أبو العلاء المعري، ص: 82.

(2) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص 158 - 159.

التكرار (*)	الكلمة
02	غربة
05	اغرب _ اغربة _ اغتراب
15	غريب _ متغربوه _ متغريبه
10	يتغرب _ تغرب _ مغرب
01	مغترب
02	غرباء
05	النوى _ نأت
04	الفراق _ التفرق
08	تباعد، بعيد، بعاد، بعد
02	غائب
03	نرح، ترح، نازح
06	هجران، هجير، هجر
06	اعتزال، اعتزل، أعزل
04	عزل، معزول، تعزل
02	معزل
04	ارتحل، ارتحال، يرتحل، مرتحل
03	توديع-أودّع-التوديعا

يبين لنا هذا الجدول أغلب الكلمات التي تدور في الحقل الدلالي لموضوع الاغتراب المكاني في ديوانه، فنجد هنا يستعمل لفظة غربة ومشتقاتها التي تدور في فضاءها المعجمي مثل: النوى ، الفراق، البعد، البعاد، الاعتزال والارتحال.... إلخ من الكلمات التي لها نفس المعنى مع لفظة غربة، والتي استعملت في مواضيع مختلفة ومتباينة، وهو بصدد المدح، أو الوصف، أو التغزل أو الرثاء... إلخ من الأغراض، وكأن تلك الكلمات تفرض نفسها فرضاً على الشاعر فيفك عقالها لكي يستريح من الضغط الذي يولده له الاغتراب.

(*)- التكرار هنا يقتصر على الكلمة ضمن موضوع الغربة المكانية فقط.

فلو جئنا لنحصي لفظة (غربة) مع كل مشتقاتها: اغتراب، غريب، مغترب، اغترب، اغرب وغيرها، لوجدناها ترددت (35) مرة في شعر المعري و من هنا تصبح هذه اللفظة مع من يدخل في حقلها الدلالي أكثر تكرارا بين ألفاظ المجموعة .

فهي مفردة صاحبة شحنة عاطفية، تحمل في مدلولاتها طابع والأسى وتثور الأشجان بمجرد سماعها.

إننا عندما نلقي نظرة على الكلمات التي تنتظم وفق معجم الاغتراب المكاني، وانطلاقاً من الجدول وبالاعتماد على الإحصاء نجد أن منها ما يتخللها مد مثل اغتراب، فراق، اعتزال، ارتحال، نوى، بعاد هجران، وهذا المد يسمح بإخراج قدر كبير من الأحزان والآلام والآهات بما يشبه التأوه والتوجع أما النسبة المتبقية فنجد بعض ألفاظها على وزن اسم فاعل من مثل: غربة، بعد وبعضها على وزن اسم فاعل مثل غائب، نازح. إضافة الى وجود بعض الألفاظ ساكنة الوسط مثل غربة، بعد.

فهذا إذن عن موضوع الاغتراب المكاني عند المعري الذي تفرّع الى موضوعات فرعية أخرى كالحنين الى الوطن والحنين الى بغداد، وهذا ما سوف أوضحه .

2- تجليات الشوق والحنين في شعر المعري:

لقد أخذ مصطلح الحنين تعريفات جمّة في المعجمات والكتب العربية فنجده مثلاً يعني في القاموس المحيط: « الشوق وشدة البكاء والطرب، أو صوت الطرب عن حزن أو فرح »⁽¹⁾.

أما في مختار الصحاح للرازي فهو: « الشوق أيضا وتوقان النفس »⁽²⁾ فهذا عن مصطلح الحنين، أما عن الشعر المتصل بهذا الموضوع، فيعتبر لونا شعريا كغيره من الألوان والأغراض الأخرى التي ظهرت في الأدب العربي كالرثاء والغزل والوصف والهجاء والحكمة والمدح وغيره من المواضيع التي عرفت في شعرنا العربي.

وقد حاول بعض الدارسين يحملوا بعضا أن يحملوا بعض من ملامحه العامة التي تميزه عن غيره من الألوان وهذا ما يتجلى في كلام (وهب رومية) إذ يصفه بأنه: « شعر وجداني عذب رقيق، يتوهج بالشوق ويفيض بالمشاعر الإنسانية الأصيلة ويمور بالعاطفة الصادقة، شعر مفعم بحزن إنساني شفيف، فيه صفاء الدمع وحرارته، ورقة الحب وانكساره وقسوة الحزن وشفائوه ولهفة المشتاق الخائب، وصبوة العاشق الحزون الذي لا يستطيع أن يتوب عن الشوق، ولا يقوى على التجمل بالصبر شعر تخالطه مرارة إنسانية عميقة، أو بوح نفسي شفاف كقطعة من الماس يستبطن الذات

(1) - الفيروز أبادي: القاموس المحيط والقابوس الوسيط، www.al-eman.com

(2) - الرازي: مختار الصحاح، مادة (حنن).

فيصور أحاسيسها وانفعالاتها وانكساراتها، وحيياتها فتبرز فيه لحظة الضعف الإنساني بكل فتنتها وبهائها»⁽¹⁾.

فإذن الحنين وانطلاقاً من هذا القول يقطر شوقاً، ويمتاز بالعدوابة والرقّة والصدق العاطفي، كما نجده يخيم عليه الحزن والإغراق فيه والشفافية والصفاء في إظهار الأحاسيس والانفعالات وتصويرها، وسوف نتأمل هذا اللون في شعر أبي العلاء المعري، ولنتتبع تحليات الشوق والحنين فيه:

أ- الحنين إلى الوطن (المعرة):

إنّ كلمة الوطن كغيرها من الكلمات التي تناولها الباحثون وتعقبوها بالدراسة، فإذا ما بحثنا عنها في المعاجم العربية نجدها تعني في لسان العرب معاني عديدة، «فالوطن هو المنزل تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحلّه، والجمع أوطان، وأوطان الغنم والبقر، مرابضها وأماكنها التي تأتي إليها. ومواطن مكة: مواقفها وهو من ذلك وطن بالمكان وأوطن أقام وأوطنه اتخذه وطناً، يقال أوطن فلان أرض كذا وكذا أي اتخذها محلاً ومسكناً يقيم فيها وأوطنت الأرض ووطنتها توطينا واستوطنتها؛ أي اتخذتها وطناً وكذلك الإيطان، وهو افتعال منه غير: أما المواطن فكل مقام قام به الإنسان لأمر فهو موطن له، كقولك: إذا أتيت فوقفت في تلك المواطن فادع الله لي وإخواني، وتوطن النفس على الشيء: كالتمهيد، وطن نفسه على الشيء وله فتوطنت حملها عليه فتحملت وذلت عليه، وقيل: وطنّ نفسه على الشيء وله فتوطنت حملها»⁽²⁾.

أما في "أساس البلاغة" للزمخشري فكلمة «وطن هي: كل يحب وطنه وأوطانه وموطنه، والإبل تحن إلى أوطانها، وأوطن الأرض ووطنها وتوطنها واستوطنها، ومن المجاز: هذه أوطان الغنم لمرابضها»⁽³⁾.

أما في القاموس المحيط للفيروز أبادي فكلمة «وطن تعني: محرّكة ويسكن: منزل الإقامة، ومربط البقر والغنم، ج أوطان، ووطن به يطن وأوطن: أقام، وأوطنه ووطنه واستوطنه: اتخذه وطناً»⁽⁴⁾.

(1) - وهب رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، مارس 1996، ع207، ص

163.

(2) - ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت، طبعة جديدة، مادة (وطن).

(3) - الزمخشري: أساس البلاغة، مادة (وطن).

(4) - الفيروز أبادي: القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، 2005، مادة (وطن).

وتجدر الإشارة إلى أن هناك ألفاظا في اللغة العربية تؤدي المعنى نفسه لكلمة وطن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مغاني « وهي المواضع التي كان بها أهلها »⁽¹⁾ ، والأرض: « التي عليها الناس »⁽²⁾ ومعهد وهو في لسان العرب: «الموضع كنت عهده أو عهدت هوى لك أو كنت تعهد به شيئا والجميع المعاهد»⁽³⁾ .

لقد فطر الإنسان على حب مسقط رأسه والمكان الذي ولد وترعرع فيه يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيْبًا﴾⁽⁴⁾ .

فقد ظهر مفهوم الوطن ومنذ القديم وتطور عبر العصور وهذا ما تعكسه مختلف أشعار الشعراء، حيث كانت نزعة الحنين إلى الوطن شائعة عندهم، فهامو أحدهم يحن ويشتاق إلى وطنه يقول:

أيا أثلاث القاع من بطن توضح	حنيني الى أطلالكن طويل
أيا أثلاث القاع قد مل صحبتي	مسيري، فهل في ظلكن مقيل
ويا أثلاث القاع قلبي موكل	بكنّ وجدوى خيركن قليل
ألا هل إلى شمّ الخزامى ونظرة	إلى قرقرى قبل الممات سبيل
فأشرب من ماء الحجلاء شربة	يداوي بها قبل الممات عليل ⁽⁵⁾ .

ويعدّ أبو العلاء المعري نموذجاً في هذا المضمار، إذ تجلت عاطفة الشوق والحنين في شعره تجاه وطنه بصورة واضحة وهذا ما سوف أبيّنه لاحقاً.

وبالرغم من أن أبا العلاء المعري أوصى بحاله بعدم التحلي عن وطنه مثلما ذكرنا سابقاً إلا أنه هاجر إلى بغداد تاركاً وراءه الشام ولكنه « كان حين زار العراق شديد الحزن على المعرة لا يسليه عنها الكرخ وما فيه من ماء عذب، وكان بعده عن أهله وإصفار يده من المال وعزة نفسه عن سؤال

(1) - ابن منظور: لسان العرب، مادة (غنا).

(2) - ابن منظور: لسان العرب، ، مادة (أرض) .

(3) - ابن منظور: لسان العرب، مادة (عهد).

(4) - سورة النساء / 66.

(5) - محمد مصطفى أبو شوارب: جماليات النص الشعري قراءة في أمالي القاضي دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2005، ص: 60.

الناس تضاعف في قلبه هذا الحزن، وتذكي في نفسه هذا الأسى، فأنشأ في ذلك قصيدتين من خير ما حوى سقط الزند»⁽¹⁾.

يقول في الأولى:

وكم همّ نضوّ أن يطير مع الصبا إلى الشام لولا حبسه بعقال⁽²⁾.

ويقول:

فيا برق! ليس الكرخ داري وإنما رماني إليه الدهر منذ ليال⁽³⁾.

فهو لا شأن له بالكرخ وبغداد، وإنما هو من المعرة التي لطالما حن إليها وتشوق لرؤيتها والعودة إليها أثناء إقامته ببغداد يقول:

طربن لضوء البارق المتعالي ببغداد، وهنا، ماهن ومالي

سمت نحوه الأبصار حتى كأنها بناريه من هنا وثم صوالي

إذا طال عنها سرها لو رؤوسها تمد إليه في رؤوس عوال⁽⁴⁾.

فهو يقول بأن الأبصار سمت نحو البارق من جهتي الشام والعراق فحدقت به كما يحدق المصطلون بالنار وثنى النار باعتبار ما يرى من البرق من ناحية الشام ومن ناحية بغداد، ويقول كلما ابتعد هذا البارق نحو الشام ضمنت الإبل لو تقطع رؤوسها وترفع إليه على صدور الرماح فهنا إشارة إلى شدة حنينها لوطنها.

فمن شدة شوقه إلى وطنه زاره طيفها في المنام يقول:

حملت، من الشامين، أطيّب جرعة وأنزرها، والقوم بالقفر ضلال⁽⁵⁾.

فقد تمنى وهو بالكرخ أن يحمل إليه البرق ولو قطرة من ماء المعرة يروي بها ظمأه

يقول:

فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال⁽⁶⁾

ويقول:

وماء بلادي كان أنجع مشربا ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال⁽¹⁾.

(1) - طه حسين: أبو العلاء المعري حياته وشعره، ص: 44.

(2) - طه حسين: المجموعة الكاملة، ص: 159.

(3) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 240.

(4) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 237.

(5) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 243.

(6) - سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص: 130، وأبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 248.

ونلاحظ أنّ ماء المعرة الذي يتشوّق إليه ويتمناه ما هو إلّا ماء آبار لا يقاس الى ما في دجلة والفرات من ماء عذب يقول :

أخواننا بين الفرات وجلق
أنبئكم أيّ على العهد سالم
وأيّ تيممت العراق لغير ما
فأصبحت محمودا بفضلي وحده
ندمت على أرض العواصم، بعدما
يد الله لا خبرتكم بمحال
ووجهي لما يتبذل بسؤال
تيممه غيلان عند بلال
على بعد أنصاري وقلة مالي⁽²⁾
غدوت بها في السوم غير مغال

ولأبي العلاء المعري قصيدة أخرى رائعة في الحنين إلى أهله ووطنه، يبدو فيها مشتاقا، ومتلها إلى العودة للقاء أهله وتراب وطنه قال فيها:

تميت أن الخمر حلت لنشوة
فأذهل أيّ بالعراق على شفا
مقل من الأهلين: يسر وأسرة
طويت الصبي طي السجل وزارني
متى سألت بغداد، عنيّ وأهلها
إذا جنّ لي ليّ جنّ ليّ وزائد
فيا وطني! إن فاتني بك سابق
فإن أستطع في الحشر آتك زائرا ؛
تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
رذيّ الأماني، لا أنيس ولا مال
كفى حزنا بين مشت وإقالال
زمان له بالشيب، حكم، وإسجال
فإني عن أهل العواصم سأل
خفوق فؤادي كلما خفق الآل
من الدهر فلينعم لساكنك البال
وهيهات لي يوم القيامة أشغال⁽³⁾

إنّه يحس وهو في العراق بغربة موحشة، ووحدة قاتلة فلا أهل ولا أصحاب يستأنس بهم ولا مال يستعين به في ديار الغربة، فهو أكثر تعاسة وهو بعيد عن المعرة التي قضى فيها طفولته، لذلك نجده مصمما على أنه متى أتاحت له الفرصة بالعودة إليها لعاد دون أي تفكير وإليها دون مكان آخر في العالم.

والآن نصل إلى هاته الجداول التي نتبّع فيها اطراد الموضوع الفرعي -الشّوق والحنين الى الوطن- معجميا من خلال ديوانيه سقط الزند واللزوميات .

الكلمة	التكرار
--------	---------

الكلمة	التكرار
--------	---------

(1) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص : 240

(2) - طه حسين :الجموعه الكاملة، ص: 159-160،و أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 242.

(3) - سميرة سلامي :الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ص130.

أرض	193
بلاد، بلد	48

وطن	02
أوطان	06
الشام	07
المعرة	02
حلب	01

الكلمة	التكرار
متزل	16
دار	06
مغاني	04

ما لوحظ - عموماً - أن المعري استعمل الكلمات التي تدل على بقعة واسعة من الأرض ، مثل: أرض ، بلد، بلاد، مغاني وغيرها، وربما يكمن استعماله هذا على مسحة تجديدية عنده أو لتطور مفهوم الوطن في العصر العباسي، وكلمة (أرض) هي الأكثر تواتراً ضمن هذه المجموعات وذلك راجع إلى أن الأرض مقدسة لدى الإنسان وبينهما علاقة وطيدة ففيها مسكنه ومأواه وفيها رزقه وعمله.

ب- الحنين إلى بغداد:

بغداد هي مدينة من بين المدن التي زارها العديد من الكتاب والشعراء نظراً لمكانتها المرموقة، ولما حظيت به من علم وثقافة وفن، فكان الكثير من المتعطشين لها يتجهون إليها لينهلوا من ثقافتها وعلمها، ومالها وكل من يذهب إليها يتعلق بها بالرغم من الصعوبات الجمة التي تظهر في البداية نتيجة النوى والبعد ومفارقة الخلان والأصحاب والأهل ، فيصبح كل من يفارقها يركب الندم طول حياته عليها.

ومن بين الذين جزعوا لفراق بغداد «القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر الملكي». فقد نبا به المقام ببغداد، فخرج يريد مصر وخرج معه أهلها يودعون، فأخذوا يتوجعون لفراقه فقال والله لو وجدت عندكم في كل يوم مدامن الباقي ما رافقتكم ثم أنشد يقول :

سلام على بغداد من كل متزل
فوالله فارقتها عن قلبي لها
ولكنها ضاقت عليّ برحبها
وكانت كخجل كنت أهوى دنوه
وحق لها مني السلام المضاعف
وإني بشطي جانبيها لعارف
ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وأخلاقه تنأى به وتحالف

وكأن بغداد في ذلك العصر كانت تفيض منها تلك العين القصصية التي لا يشرب منها شارب إلا كلف بقربها»⁽¹⁾.

وإضافة إلى القاضي بن نصر الملكي الذي حزن على بغداد حين فارقتها نجد أبا العلاء المعري الذي ومن دون شك لحقته آلام الفرقة والحسرة على بغداد بالرغم من أنه كان يحس فيها بالغرابة والنوى والوحشة والوحدة، فكان دائما تواقا لرؤية بلده المعرة يحدوه أمل بالعودة إليها في أول فرصة تسنح له، فهذا الشوق العارم لوطنه المعرة وهذا الألم والكآبة واليأس الذي كان يشعر به المعري وهو بعيد عن أهله ووطنه سرعان ما رجع من جديد حين عاد إلى وطنه متذكرا بغداد .

فذابت نفسه حسرة لفراق بغداد وأهلها، فهو إذن « طامح إلى بغداد إن كان في المعرة وهو مشوق إلى المعرة إن كان في بغداد ثم هو محزون على بغداد إن عاد إلى المعرة، وقد صور المتنبّي هذه الخصلة تصويرا رائعا في بيته المشهور:

خلقتُ ألوفا لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبي موجه القلب باكيا

وصور أبو العلاء نفسه هذه الخصلة تصويرا رائعا في شعره الذي بكى فيه الشام حين كان في العراق، والذي ندم فيه على العراق حين عاد إلى الشام»⁽²⁾.

فعبّر عن هذا الإحساس بأشعار رقيقة حفظها ديوانه سقط الزند يقول:

أودعكم يا أهل بغداد والحشا	على زفرات ما ينين من اللذع
وداع ضنى لم يستقل وإنما	على أنهم قومي وبنهم ربوع
ألا زودوني شربة، ولو أنني	قدرت، إذان أفنيتُ دجلة بالجرع
وما الفصحاء الصيد والبدو دارها	بأفصح قولاً من إمانكم الوكع
أدرتم مقالا في الجدل بالسن	خلقن فجانيين المضرة للنفع
سأعرض إن ناجيت من غيركم، فتى	وأجعل زوا من بنايتي في سمعي
أظن الليالي وهي خون غوادر	بردي الى بغداد ضيقة الدرع
وكان إختياري أن أموت لديكم	حميدا فما ألفت ذلك في الوسع
فليت حمامي حُم لي في بلادكم	وجالت رمامي في رياحكم المسع ⁽³⁾

ويقول:

(1) - طه حسين: أبو العلاء المعري حياته وشعره، ص: 48-49.

(2) - طه حسين: مع أبي العلاء في سجنه، ص: 80-81.

(3) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 263، 267.

يخبّرنا أن الشعوب إلى صدع
صحابة موسى يعد آياته التسع⁽¹⁾

فهمه المقاطع خير دليل على أن المعري حزن على بغداد أثناء وداعه لها حين فارقها.
ويقول أيضا:

فدونكم خفض الحياة فإننا
تعبجت إن لم أثن جهدي عليكم
نصبنا المطايا بالفلاة على القطع
سحاب الرزايا هي صائبة الوقع⁽²⁾.

كما نلمح وداعه لها في قصيدة أنشدتها وهو بمدينة السلام تهنئه بمولود لصديقه أبي القاسم التنوخي فقال:

ولولا ما تكلفنا الليالي
لطل القول واتصل الروي
إذا نأت، العراق بنا المطايا
فلا كنا ولا كان المطي
على الدنيا السلام، فما حياة
إذا فارقتمكم، إلا نعي⁽³⁾

« فقد شعر هنا بموت الحياة لفراق بغداد، فذكر النعي في مولد الحياة وهو يهنيء بمولود⁽⁴⁾ ».

ويحدثنا أبو العلاء أن سببين اثنين صرفاه عن المدينة التي كان عازما على أن يقيم فيها ، أحدهما الفقر والآخر مرض أمه، وهذا ما بيّنه في هذه الأبيات التي بعث بها إلى أبي القاسم التنوخي:

أثارني عنكم أمران: والده
لولا رجاء لقائها لما تبعته
أحياهما الله عصر البين ثم قضى
لم ألقها، وثرأ عاد مسفوتا
قبل الإياب إلى الذخرين أن موت
عنسي دليلا كسر الغمد إصليتا⁽⁵⁾

فتنتيجة لتلك الأسباب وقبل رحيله إلى المعرة متجها إليها من بغداد، قال قصيدة في صديقه (أبي

علي النهاوندي) فجاءت نشيج وداع وأنيبا وحيرة وحزنا على فراقه المحتوم يقول:

كفى بشحوب أوجهنا دليلا
أبت صنفا النواعب من نياق
على إزماعنا عنك الرحلا
وطير، أن نقيم وأن نقيلا
تأملنا الزمان غما وجدنا
إلى طيب الحياة به سبيلا

(1) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 260.

(2) - طه حسين: المجموعة الكاملة، ص: 162-163.

(3) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 259.

(4) - عائشة عبد الرحمن: مع أبي العلاء رحلة حياته، ص: 140.

(5) - ينظر طه حسين: أبو العلاء المعري حياته وشعره، ص: 42، وأبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 296-297.

يفجعنا ابن دأبة بابن انس
كلفنا بالعراق ونحن شرخ
وردنا ماء دجلة خير ماء
وزلنا بالغيلل وما اشتفينا
فجاء بذلك الر حيل بعدما ألف بغداد وأهلها، فعز عليه مفارقتهم متمنيا الاجتماع بهم مرة ثانية:
سَقِيًا لدجلة والدنيا مفرقة
وبعدها لا أريد الشرب من نهر
بت الزمان حبالي من حبالكم
ذم الوليد ولم أذمم جواركم
فإن لقيت وليدا والنوى قذف
أعد من صلواتي حفظ عهدكم
ويقول في موضع آخر مبينا حزنه عليها:

يالهف نفسي على أتّي رجعت إلى
إذا رأيت أموراً لا توافقي
هذي البلاد ولم أهلك ببغداد إذا
قلت الإياب إلى الأوطان أدى ذا⁽³⁾

فحبه الكبير لبغداد وأهلها جعله يعمد إلى ذكرها ويحن إلى من تركهم هناك من صفوة الأصحاب، فيقول في قصيدة أرسلها إلى صديقه (أبي القاسم بن الحسن التنوخي):

يا عارضا راح تحدوه بوارقه
لنا ببغداد من نهوى تحيته
يا ابن المحسن! ما أنسيت مكرمة
فإن تحملتها عنا فحييتنا
للكرخ سلمت من غيث ونجيتنا .
فاذكر مودتنا إن كنت أنسيتنا⁽⁴⁾.

كما نلتمس حينه لأيام الود التي عاشها مع أقرانه وأصحابه في بغداد من خلال رسالته التي رد بها على صديق له في بغداد، فكتب يذكره بالأيام الحلوة حين كان المعري بمتزله (بالقطيعة) على شط دجلة:

(1) - أبو العلاء: سقط الزند، ص: 269، 272.

(*) - يشير إلى الآية الكريمة: فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر، فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني.... "البقرة/249

(2) - أبو العلاء: سقط الزند، ص: 296-297.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 271.

(4) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 295.

أذاكر أنت عصرا مر عندك لي
 أيام واصلتني ودا وتكرمة
 والآن أشرح أمري غير معتمد
 مد الزمان وأشوتني حوادثه
 وحلتُ كلي سوى شيب تجاوزني
 جنيت ذنبا وألهى خاطري وسن
 فليس مثلي بناس ذلك العصرا
 وبالقطيعة داري تحضر النهرا
 فيه الإطالة، كيما تعلم الخبرا
 حتى مللت وذمت نفسي العمرا
 ولم يبيض علي طول المدى الشعرا
 عشرين حولاً، فلما نبه اعتذرا⁽¹⁾

فإذن كان يحمل في أعماقه شوقا كبيرا لبغداد وأهل بغداد، فظن أنه نسيهم على ممر الحقب نتيجة تجافهم وبعده عنهم إلا أنه سرعان ما تحركت وهاجت مشاعره اتجاههم لما عرف برسالة صديقه.

وبعد هذه اللمحة التي وظفنا فيها حين المعري إلى بغداد بلد العلم والثقافة نحاول أن نحصي في جدول كالمعتاد، عدد الكلمات التي تصب في هذا الموضوع من خلال ديوانه سقط الزند واللزوميات.

الكلمة	التكرار
بغداد	03
العراق	10
الكرخ	03
الزوراء	01
تكريت	01
دجلة	01
الفرات	04

نلاحظ من خلال هذا الجدول أنه ذكر بغداد في ديوانيه وذكر مختلف المدن فيها من تكريت إلى الزوراء والعراق ودجلة والفرات، وهي كلها أسماء مدن بالعراق، كما نلاحظ أيضا أنه عمد إلى تكرار اسم العراق (10) مرات أكثر من أسماء المدن الأخرى، ربما لكونها عاصمة المدن الأخرى وتليها بغداد في المرتبة الثانية إذ ذكرها (3) مرات.

والشيء الملاحظ أيضا أنه عمد إلى ذكر بغداد والعراق أكثر من وطنه المعرة إذ لم يذكره إلا مرتين بخلاف العراق.

(1) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 315.

3- طرق قهر الاغتراب عند المعري:

لقد أصبح واضحاً - بعد كل ما سبق - من أن الشاعر أبا العلاء المعري، قاسى ويلات الاغتراب فأجبرته معاناته الشديدة على محاولة إيجاد وسائل تنسيه همومه وأحزانه وتخفف بها شعوره بالاغتراب سواء الذي ينشأ نتيجة انتقاله من مكان إلى آخر أو الذي ينشأ نتيجة الانفصال بينه وبين ذاته ومجتمعهم وقد أتجه إلى طريقتين لقهر اغترابه أو التخفيف منه باتا واضحين :

أ- العزلة:

إذ حثّ على التفرد والانعزال عن الناس يقول:

إن صح عقلك فالتفرد نعمة ونوى الأوانس غاية الإيناس⁽¹⁾ .

ففي التوحد وقاية من الاختلاط ودناياه يقول:

إذا انفرد الفتى أمنت عليه دنايا ليس يؤمنها الخلاط⁽²⁾ .

ويقول في موضع آخر من الديوان:

الحكم لله فالبث مفرداً أبداً ولا تكن بصنوف الناس مختلطاً⁽³⁾ .

« لذلك نجده لزم بيته، فلبث تسعا وأربعين سنة في محبسه بالمعرة لم يغادر إلا مرة واحدة لم تتكرر حين حملة قومه على الخروج ليشفع لهم لدى " أسد الدولة " صالح بن مرداس صاحب حلب»⁽⁴⁾، فهو دائم الجلوس في بيته لا يرحه إلا نادراً.

« وقد دفعته إلى هذه العزلة أسباب كثيرة، أولها هذه الغريزة التي ذكرها ودل عليها شعره، ونثره، ومنها ذهاب بصره فإنه حين فقد عينيه جهل كثيراً من آداب الناس في حفلاتهم ومواضعهم في أنديتهم ومجالسهم، وهو - كما قدمنا - شديد الحياء، عزيز النفس فكان يكره أن يخطئ ما ألف الناس فيكون منهم مكان السخرية والاستهزاء، أو مكان العفو والمغفرة أو مكان الشفقة عليه والرتاء، فأثر أن يتجنب عشرتهم ما استطاع ثم كان فقده أباه وأمه وشدة فقره وسوء معاملة الناس له، فقوى ذلك كله في نفسه هذا الميل»⁽⁵⁾ فهذه الأمور كلها عززت من وحدته وعزلته الى جانب فشله في الإقامة

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 483.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 509.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 512.

(4) - عائشة عبد الرحمن: مع أبي العلاء في رحلة حياته، ص: 175.

(5) - طه حسين: أبو العلاء المعري حياته وشعره، ص: 52-53.

ببغداد ثمّ اضطره إلى الإقامة بمعرة النعمان تلك التي لا تقاس إلى بغداد لإصغارها من العلم وخلوها من العلماء⁽¹⁾.

ففي التفرد والعزلة راحة نفسية وهذا ما جعله يختارها ويظهر ذلك في قوله:

في الوحدة الراحة العظمى فأحي بها قلبا وفي الكون بين الناس أثقال⁽²⁾.

وقد إختار المعري العزلة ليظهر نفسه من مجالسة المنافقين فاسمعه يقول:

تخير، فأما وحدة مثل ميتة وأما جليسا في الحياة، منافق⁽³⁾

فإذن لزوم بيته كان من بين السجون التي فرضها المعري على نفسه فهو يقول:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدي ناظري، ولزوم بيّتي وكون النفس في الجسد الخبيث⁽⁴⁾

«ولكن هذه العزلة لم تكن ميسورة كما شاء أبو العلاء، فالتف حوله الطلاب واشتغل بالتعليم

والتأليف، فما باختياره كان يلقي زواره فاقترحوا عليه عزلته فشغلوه وشغلوا به على كره منه»⁽⁵⁾.

فعرلته جعلته يتفرغ لأشياء كالتأليف والتدريس إذ بلغ عدد هذه المؤلفات العشرات من الكتب

والرسائل والدواوين كما شغل نفسه بتسييح وتمجيد الله وهذا ما يتبين من قول المعري: «لزمت

مسكني منذ سنة أربعمائة واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيده إلا أن أضطرّ الى غير ذلك

فأملت أشياء... وهي على ضروب مختلفة منها ما هو في الزهد والعضات وتمجيد الله سبحانه وتعالى

من المنظوم والمنثور»⁽⁶⁾.

وثاني وسيلة اتبعها المعري لقهر الاغتراب هي:

ب- الزهد: زهد في الحياة التي أرقته فكان يتمنى الرحيل عنها لو كان الأمر باختياره وعدم البقاء فيها

يقول:

دعالي بالحياة أخو وداد رويدك إنما تدعو عليّا
وما كان البقاء لي اختيارا لو أن الأمر مردود إليّا⁽⁷⁾

(1) - ينظرطه حسين: المجموعة الكاملة، ص: 167.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 619.

(3) - جعفر خريباتي: أبو العلاء المعري رهين المجسّين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص: 51.

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 167.

(5) - جعفر خريباتي: أبو العلاء المعري رهين المجسّين، ص: 52.

(6) - طه حسين: تعريف القدماء بأبي العلاء، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965، ص: 101، 38.

(7) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 873.

فقد كره الدنيا وهجاها في ديوانيه، فتمثلها غولا ودار شرور وغيرها من النعوت التي ألصقها بها، فهو يقول:

دنياك دار شرور لا سرور بها وليس يدري أخوها كيف يجترس⁽¹⁾ .

ويقول عن الدنيا بعدما خبرها بأنها مليئة بأجناس دنيئة، ويعمها الشر من كل حدب و صوب،

ولا يحق للإنسان أن يعيش فيها فهو ظالم إن فعل ذلك:

قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها

والشر في العالم حتى التي مكسبها من فضل عرناسها

وكل حي فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها⁽²⁾

لذلك أوصى بالابتعاد عن هؤلاء الأجناس لأن في البعد عنهم طهارة يقول:

طهارة مثلي في التباعد عنكم وقربكم يجني همومي وأدناسي

عداوة الحمق أعفى من صداقتكم فابعد عن الناس تأمن شر الناس

قد آنسوني بإيحاشي إذا بعدوا وأوحشوني في قرب يائناس⁽³⁾

« فقد كان راغبا في الدنيا ثم رغب عنها وكان قادرا في الحالتين .. كان إنسانيا بين الأناسي من أجل إنسانيته كيلا تضيع أو تمان⁽⁴⁾ .

ولكنه انصرف عن كل زخارف الدنيا وزينتها، داعيا إلى التقشف بمثل قوله:

لا تشرفن بدنيا عنكم معرضه فما التشرف بالدنيا هو الشرف⁽⁵⁾ .

فزهدهم لمجرد معرفتها ومعرفة الناس فيها.

وزهديني في الخلق معرفتي بهم وعلمي بأن العالمين هباء⁽⁶⁾

« فكان بذلك يأبى على نفسه طيب الطعام، ولين الثياب، ولا يقبل إلا ما خشن منها

يقول:

يكفيك طعم جنسه واحد أطعمه ضرت بتجنيسها

والثوب في أرضك من وحشها يغنيك عن أثواب تنسيها⁽¹⁾

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات ج2، ص: 456.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص. 484.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص 475، 469.

(4) - خليل شرف الدين: في سبيل موسوعة فلسفية، ص: 90.

(5) - شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، الطبعة الثالثة، (د،ت)، ص: 113.

(6) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 36.

ونرى بعض المعاصرين يقرأ قوله في اللزوميات:

وقال الفارسون حليف زهد
وأخطأت الظنون بما فرسنه
ولم أعرض عن اللذات إلا
لأن خيارها عني خنسنه⁽²⁾

« فيظن أنه كان على مذهب أبيقور الذي حرم على نفسه اللذات لما يعقبها من آلام ترجحها وعاش معيشة زهد وقناعة، وليس في بيت أبي العلاء ما يفهم من هذا الزهد الأبيقوري المتفلسف، إنما فيهما ما عرف به من تواضع شديد، فهو لا يريد أن يدل على الناس من حوله بزهده ولذلك يزعم أنه زهد لا حرية فيه»⁽³⁾.

وقد عرف المعري بأشياء ثلاثة هي البسمة والحنان والحب، أراد أن يغمر الناس ومن هو موجود أمامه، فلم يجد أحدا، لا أبا ولا أما ولا أصدقاء إضافة إلى الظلمة التي كان يعيشها في هذا الوجود، فأفرغ هذه الأشياء في الحيوانات والطيور والحشرات وأدم الأرض، والإنسان المستضعف الذي - حسب رأيه - خسر نفسه ووجوده مرتين، مرة يوم ولد من دون حول له ولا قوة، ومرة سلبت قوته من هذا الوجود.

فلذلك نجده لا يأكل لحما ولا بيضا ولا سمكا ولا عسلا، فقد اقتصر على النباتات رحمة بالحيوانات وفي ذلك يقول:

غدوت مريض العقل والرأي فالقني
لتعلم أنباء الأمور الصحائح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما
ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح
ولا بيض أممات أرادت صريحه
لأطفالها دون الغواني الصرائح
ودع ضرب النحل الذي بكرت له
كواسب من أزهار نبت فوائح⁽⁴⁾

فهو يدعو إلى أن يدع السمك في الماء لا يخرجه ظلما، كما يدعو إلى الإمتناع عن أكل لحوم الذبائح، وأكل البيض الذي تريده أمهاته لتكوين أولادها فلا يأخذه لنفسه أو للجميلات من النساء وينهاه عن أكل عسل النحل، فقد عانت النحلة وهي تجمعها من الأزهار ذوات الرائحة العطرة فنراه

(1) - شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص: 113، و أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 485.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 795 - 796.

(3) - شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص: 113.

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 197.

قانعاً بالمال الزهيد، فكان بذلك « غنيا عن المال لا به »⁽¹⁾ فما أراد أن يجمع مالا ولا جاها ولا ملكا ولا مجدا يقول:

من مذهبي ألا أشد بفضة قد حي ولا أصغي لشرب معوج
لكن أقضي مدتي بتقنع يغني، وأفرح باليسير الأروج
هذا ولست أود أي قائم بالملك في ثوبي أغر متعوج⁽²⁾

«ويقترن زهد أبي العلاء، أو هذا الأصل الأول من أصول فلسفته بأصل ثان هو تشاؤم واسع، تشاؤم يمتد ظلالة بل ظلماته على جميع مناحي الحياة وقد رأيناه يعرض بعض مناحيها السياسية والاجتماعية عرضاً قائماً، ليس فيه أي بريق من الأمل بل فيه اليأس المضني الذي اجتاحت الأمة وجعلها تنغمس انغماساً في حمأة الشر»⁽³⁾.

فيندفع في تشاؤم شديد السواد فيقول:

ألا إنما الدنيا نحوس لأهلها فما في زمان أتت فيه سعود⁽⁴⁾

« فقد غربت من سماء الدنيا كل كواكب السعد ونجومه، ولم يبق إلا نجوم النحس مطلة على الوجود وكأن أحدا لا يستطيع إنقاذ الناس من كوارث هذا النحس وشرها المستطير، ومن أجل هذه الكوارث يمتنع أبو العلاء عن الزواج، وأن يرزق الولد ويشعر أن ذلك جنابة خطيرة أن يجلب إلى عالم السوء والنحس الذي يعيشه مولودا يعرض لشروره»⁽⁵⁾.

فيطلب من الناس جميعاً أن يمتنعوا مثله على الزواج والتناسل حتى تتوقف وتتحطم الحياة البشرية يقول:

لو أن كل نفوس الناس رائية كراى نفس تناءت عن خزايها
وعطلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزايها⁽⁶⁾

فهو ينصح الناس بإخلاق بأن يتبعوا سياسته فيكفوا عن الزواج حتى لا يأتي الأولاد؛ فتمتلئ الدنيا بهم فيسود الشر ويعم أرجاء العالم.

وخلاصة القول أن أبا العلاء المعري عانى من الاغتراب بأنواعه المختلفة وشمل الاغتراب الزماني والاعتراب الاجتماعي والسياسي وكذا الاغتراب المكاني، وهي كلها أشكال وجدت صدقاً واسعاً

(1) - خليل شرف الدين: في سبيل موسوعة فلسفية، ص: 93.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 183.

(3) - شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص: 114.

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 211.

(5) - شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص: 115.

(6) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 857.

وكبيراً لدى شاعرنا أبو العلاء ، وقد اتجه لقهر اغترابه إلى طرق عدة منها العزلة والانفراد وكذا الزهد في الحياة فلقد أصبح واضحاً بعد كل ما تم تناوله أنّ الاغتراب هو الموضوع الرئيسي في شعر أبي العلاء فهو بمثالة المحرك لشاعريته، وقد تمخضت عنه تلك الموضوعات الفرعية التي عمدنا إلى ذكرها وتفصيل الكلام فيها، أما الآن فسوف نورد مخططاً تقريبياً يجسد التشجير الموضوعاتي لموضوع الاغتراب في شعر المعري.

التشجير الموضوعاتي:

هذا رسم بياني يوضح أهم الموضوعات الفرعية المنبثقة عن الموضوع الرئيسي وهو الاغتراب عند هذا الشاعر الفذ - أبو العلاء المعري - الذي ومن دون شك أن ظروفه التي مر بها وحياته المؤلمة التي عاشها ومنذ الصغر مبتدأة بعماءه، وموت أبيه وأمه، جعلته في تشاؤم كبير من هذه الحياة التي لم يجد فيها ما كان يتمناه لا خيرا ولا سعادة، ولا ناسا طيبين، هذا ما جعله يحاول الابتعاد عنها فأحس بالاغتراب في أحيان كثيرة فكان هذا الأخير هو الموضوع الرئيسي في شعره، وقد أفرز بدوره عدة موضوعات فرعية كما ولدت بعض هذه الفروع فروعاً أخرى.

فالموضوع الفرعي الأول هو الاغتراب الزماني الذي يتم داخل المجتمع وبين أوساط الناس، وقد أفرز موضوعين فرعيين آخرين هما الشاعر وأحداث الزمان ومن بين الكلمات الدالة والمجسدة لهذا الموضوع نجد مثلا: دهر، زمن، زمان، ليالي، أيام، خطوب وغيرها كما تمخض عن الاغتراب الزماني موضوع فرعي ثان وهو الشاعر والموت الذي حددته ألفاظ متواجدة في ديوانه سقط الزند واللزوميات، وهي: الموت، المنون، الحمام، المنايا، المنية وغيرها.

أما الموضوع الفرعي الثاني لموضوع الاغتراب فهو الاغتراب الاجتماعي والسياسي، فالاغتراب الاجتماعي تمخض عنه موضوعان هما الاغتراب عن الناس المتمثلين في أهل الدين وأهل الأدب والشعراء إضافة إلى المتصوفة والنساء ومن الألفاظ الدالة عليه هو: رياء، مارد، مغرور وغيرها. والثاني هو الاغتراب عن قيم المجتمع وعاداته وتدور في فضائه المعجمي: غواة: لؤماء، أدناس، ذئاب وغيرها.

أما الموضوع الفرعي الثالث وهو الاغتراب السياسي فقد حاولت إدراجه مع موضوع الاغتراب الاجتماعي في فصل واحد، لأن لهما علاقة ببعضهما بالرغم من أن كل موضوع من هذين الموضوعين يشكل نوعاً من أنواع الاغتراب قائماً بذاته، والعلاقة تكمن في أن الاغتراب السياسي يعني انفصالاً عن طبقات الحكام والأمراء الذين يمثلون الحياة السياسية التي هي جزء من المجتمع، فالمجتمع يدخل في ضمنه كل ما هو متعارف عليه من عادات وتقاليد وأعراف الشعب وهم العامة من الناس إضافة إلى الحكام الذين يمثلون الطبقة العليا في المجتمع، فأى انسلاخ وانعزال عن السياسة والحكم يعني انفصالاً عن المجتمع الذي تمثله هاته الهيئة الحاكمة.

وقد دلت على موضوع الاغتراب السياسي بعض الكلمات من مثل السوء، الظلم، مكوس،

غرامات.

والملاحظ هنا أن الموضوعات كلها - تقريبا - متداخلة ماعدا الاغتراب المكاني فنجد مثلا أحداث الزمان متداخلة مع الاغتراب الاجتماعي ومع العزلة وغيرها والاغتراب الاجتماعي متداخل مع الاغتراب السياسي وهكذا....

أمّا الموضوع الفرعي الرابع فيتمثل في الاغتراب المكاني والذي أفرز الاغتراب عن الوطن متجسدا في الغربة، والاغتراب، والمغترب، والبعد، وغيرها من الألفاظ الدالة عليه.

وموضوع الحنين الذي هو من مخلفات الاغتراب المكاني يتفرع إلى موضوعين هما الحنين إلى الوطن ومفردات معجمه هي الوطن، البلاد، المعرة، الأرض، والموضوع الفرعي الثاني هو الحنين إلى بغداد والمفردات الدالة عليه هي بغداد، العراق، الكرخ، الفرات،... الخ.

إضافة إلى تلك الموضوعات الفرعية نجد طرق قهر الاغتراب ومن بين هذه الوسائل التي استعملها المعري العزلة إذ استثمرها في تحصيل العلم و التأليف والتدريس إضافة إلى زهده في هذه الدنيا التي كانت في نظره كلها مشقة وتعب لذلك لجأ إلى هذا النوع من الوسائل وقد عبّر عنهما المعري مستعملا مختلف الألفاظ مثل الوحدة، الانفراد، الانعزال وغيرها من الكلمات التي تعبر وتوحي عن هذا الموضوع الفرعي.

إذن هذه هي الموضوعات التي تكوّن موضوع الاغتراب عند المعري وقد استخلصت من ديوان المعري -سقط الزند واللزوميات- فهذه الموضوعات التي أدّت إلى اغتراب الشاعر زمانيا واجتماعيا وسياسيا ومكانيا هي موضوعات تثبت مدى إحساسه العميق بالاغتراب والانعزال.

توطئة:

لقد كانت دراستي في الفصول السابقة منصبة حول موضوع الاغتراب لدى أبي العلاء المعري وعلاقته بواقعه ووسطه الاجتماعي والسياسي والثقافي، أما الآن فسنتناول العناصر الفنية التي استخدمها المعري، لكي يعبر عن غربته وحنينه، والهدف من ذلك هو محاولة معرفة « كيفية سيطرة الأديب أو الفنان على عناصر لغته واستثمار خصائص الألفاظ، وما توحى به من ارتباطات ومن قرائن »⁽¹⁾ خاصة « وأن اللغة هي عنصر من أهم العناصر في العمل الإبداعي »⁽²⁾ فوجودها ضروري في أي عملية إبداعية وذلك لتوصيل ما هو في ذهن المتكلم، « وهي ليست جاهزة إنما تتكون، وهي في تكونها لا نموذج لها من خارج عنصرها المحدد، لكنها بوصفها شكلا تحاول إعادة تشكيل اللغة »⁽³⁾ ونظرا لأهميتها خضعت لتعريف وتحديد مجالاتها من طرف الكثير من الأدباء والنقاد، « فعرفها بذلك القدماء على أنها أداة للتعبير »⁽⁴⁾ وانطلاقا من هذا القول يتبين أن الألفاظ باتت وسائل لتجسيد هذه اللغة وهذا ما نستشفه في قول " خليل الحايي " « إن اللغة التي ترسخ فيها تراث شعري تقررت أنماطه وأشكاله تميل إلى الجمود فتمتنع عن الخلق وتقاوم التطور، ويكون على الشاعر الذي يتشوق إلى الأصالة والتجديد أن يشيح عن اللغة التقليدية ويحاول خلق لغة مستمدة من طبيعة تجاربه وتجارب الإنسان في عصره »⁽⁵⁾.

فحتى يكون الإنسان غير منفصل عن واقعه والوجود الذي هو فيه يجب عليه خلق لغة تعبر عن هذا الأخير - الوجود - بكلمة تدل عليه أو أكثر من كلمة وهذا ما دعا إليه (يوسف الخال) حيث قال: « اللغة ليست صندوقا نحتفظ به في خزائنا ونستخرج منه الألفاظ لكي نضعها علامة على الأشياء والأفكار وليست الألفاظ منفصلة عن الوجود حتى يصح أن نضع الشيء الواحد أكثر من كلمة تدل عليه »⁽⁶⁾ فالشكل الفني للغة يختلف من شاعر لآخر ومن تجربة لأخرى إذ تعكس واقعه وفكره ونفسيته. وفي الحقيقة هذه العناصر وعناصر أخرى متكاملة فيما بينها وتعمل مع بعض، أما فصلها فقد اقتضت إليه ضرورة البحث.

(1) - محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القدم والحديث، ص: 43.

(2) - محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، نضمة مصر للطباعة، (د، ط)، 2001، ص: 415.

(3) - إلياس خوري: الذاكرة المفقودة، دراسات نقدية، شؤون فلسطينية، بيروت، ط1، 1982، ص: 220.

(4) - عبد الحميد جيدة: الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل، بيروت، ط1، 1980، ص: 333.

(5) - عز الدين إسماعيل: قضايا الشعر العربي المعاصر، دراسات وشهادات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة، تونس، 1988، ص: 195.

(6) - يوسف الخال: الحدائث في الشعر، دار الطليعة، بيروت، (د، ط، د، ت)، ص: 19.

وسنحاول في هذا الفصل التعرف على الطريقة التي وظف بها المعري أدوات لغته للتعبير عن اغترابه.

- وكيف استطاعت صورته التعبير عن غربته وحنينه وشوقه؟.

- وعلى الكيفية التي سخر بها العناصر الإيقاعية للألفاظ لحساب معانيه؟

- وكيف أثر هذا الموضوع - الاغتراب - على الموسيقى الشعرية؟

أ- المعجم الشعري:

عندما نحاول أن نتوقف عند المعجم الشعري يعني أننا نحاول إلقاء نظرة على الخصائص العامة للألفاظ الأساسية التي يعتمد عليها المعري للتعبير عن اغترابه، «خاصة وأن مسألة الألفاظ تعدّ من المسائل التي تثار دائما في نقد الشعر»⁽¹⁾.

ونظرا لأهمية هذا العنصر فإننا سنحاول تتبعه في ديوانيه سقط الزند واللزوميات لمعرفة ما إن كان موضوع الاغتراب يستأثر بلغة خاصة به في شعر المعري.

والمتمعن في ألفاظ المعري التي سبقت في ديوانيه يجدها غامضة نوعا ما إذا ما قارناها بمن قبله وأقرانه من مثل المتنبي الذي جاء أسلوبه واضحا بعكس أسلوب المعري.

فغموض ألفاظه وقوة أسلوبه وجودة سبكه تدلنا على أن هذا الزمن الذي عاش فيه المعري هو زمن التصنع في الأدب شعره ونثره.

وهي أكبر دليل على أن المعري يملك قدرات هائلة في مجال الأدب مما جعله يتحدى بها الناس، حيث قال مفتخرا:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل⁽²⁾

والمعجم الشعري لموضوع الاغتراب يستمد مادته اللغوية من « القرآن الكريم الذي قرأه على يد مشاهير الحفظة والدارسين في عصره»⁽³⁾ كما يستمد مادته من الحديث الشريف والشعر العربي القديم والأمثال والتاريخ وغيرها.

واستعمالات معجم الاغتراب في شعر المعري تدور في محاور رئيسة تتمثل في مختلف الموضوعات الفرعية التي تناولناها سابقا كالاغتراب الزماني، والاغتراب الاجتماعي والاغتراب المكاني وغيرها.

(1) شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية، ط8، (د، ت)، ص: 195، 198.

(2) أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 106.

(3) علي شلق: أبو العلاء المعري والضباية المشرفة، ص: 13.

وقد استقى المعري بعض ألفاظه ومعانيه من القرآن الكريم ويظهر ذلك عموماً في قوله الذي أشار به الى موسى فقال:

كنت موسى وافتك بنت شعيب غير أن ليس فيكم من فقير⁽¹⁾

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرِ فَقِيرٍ﴾⁽²⁾ .

وقوله:

لست الكليم وفي دار مباركة حللت والجانب الغربي نوديتا⁽³⁾

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ إلى قوله في نفس السورة :

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾⁽⁴⁾

كما نجده يقول:

وألقى الموت، لم تحد المطايا بحاجاتي ولم تجف الجياد⁽⁵⁾

فهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾⁽⁶⁾

فها هو المعري يقول وهو في صدد الحديث عن الأرض:

وإذا الأرض وهي غبراء صارت من دم الطعن وردة كالدهان⁽⁷⁾

(1)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 54.

(2)- القصص/24.

(3)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 296.

(4)- القصص/30، 44.

(5)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 65.

(6)- سورة الحشر/6.

(7)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 94.

فهي مأخوذة من قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾⁽¹⁾

ولالألفاظ الدينية حظ كذلك في موضوع الاغتراب من ذلك قوله:

إذا الحرباء أظهر دين كسرى
وأذنت الجنادب في ضحاها
فصلى، والنهار أخو الصيام
أذانا غير منظر الإمام⁽²⁾

ويقول:

فصلاة الفتاة بالحمد والإخـ
لاص تجزى عن يونس وبراءة⁽³⁾

كما نجده يقول:

وصلى ثم أذن مستقيلاً
وقبل صلاته وجب الآذان⁽⁴⁾

ويقول:

وعند ضياء الفجر صليت الضحى
وعند غروب الشمس صليت العصر

وما يحمل التقصير في كل موطن
ولا كل مفروض الصلاة له قصر⁽⁵⁾

وقد اقتبس إضافة إلى القرآن الكريم من الحديث النبوي الشريف فنجده يقول:

«قال اعمل لأخراك شروى من يموت غداً وادأب لدنياك فعل الهابر الباقي

فهو مقتبس من قول رسول الله الكريم { احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً }⁽⁶⁾.

(1) - سورة الرحمن/37.

(2) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 278.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 49.

(4) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 49.

(5) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 245.

(6) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 580.

ويمكن أن نتبين إقباله على الشعر القديم وتقيده بتقاليده الفنية الموروثة وسيره على خطى السابقين من خلال هاته القراءات التي سوف نوضحها.

فقد استقى المعري بعض ألفاظه ومعانيه من الشعراء أمثال امرؤ القيس والمسيب بن علس والمتنبي وأبو تمام وغيرهم كثير ممن سوف ندرجهم في هذا المجال.

ففي البداية نحاول أن نوضح استقواء أبي العلاء المعري للألفاظ المتداولة في أشعار غيره من الشعراء السابقين وهذا ما يظهر في قوله:

ولو أنا جُزنا إلى شربها النهـ	ي عيننا بكل أصهب عان(*)
فلفظة (عان) مأخوذة من قول امرئ القيس	
أُنْفِ كلون دم الغزال معتق	من حمر عانه أم كروم شَبام ⁽¹⁾
ويقول آخذا عن المسيب بن علس لفظة القعقاع:	
إنّ الهدايا كرامات لآخذها	إن كنّ لسن لإسراف وإطماع
ولا هدية عندي غير ما حملت	عن المسيب، أرواح لقعقاع ⁽²⁾
كما أنه أخذ عن تأبط شرا لفظي الشت والطباق؟، حيث قال المعري:	
لم تنصفي، غذيت أطيب مطعم	وغذاؤهن الشت والطباق
فقد ظهرت في قول الشاعر الجاهلي تأبط شرا:	
كأنما حثحثوا حصا قوادمه	أم أم خشف بذي شت وطَبَّاق ⁽³⁾
نجده حين كان يرثي أمه يستعمل لفظتين " لدريد " للدلالة على عمق المأساة فيقول:	
سمعت نعيها صمي صمام	وإن قال العواذل لا هممام ⁽⁴⁾
فهاته الكلمة أخذت من قول (دريد):	
متى كان الملوك لكم قطينا	عليّ ولاية صمي صمام
فأدوانا ناقتي لا تأكلوها	ولما يأتكم صمي صمام ⁽⁵⁾

(*)- عان : قرية من الفرات ذكرت في شعر امرئ القيس.

(1)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 95.

(2)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 152.

(3)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 195.

(4)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 273.

(5)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 273.

فأخذه للألفاظ ومن هذا النوع كثير وظاهر في شعره وديوانيه وهذا ما نلمحه أيضا في قوله:

إذا رفعوا كلامهم بمدح فلفظي في مواطنه رسيس

أخذ من قول ذي الرمة (لفظة رسيس):

إذا غير النأي المحبين لم يكـد رسيس الهوى من حب مية يبرح⁽¹⁾

كما أنه لم يهمل من خلال قوله عبارة (ألا يا سلمى)

أموت به واحدا مفردا وأدفن في الأرض لم تظلم

وأبعد عن قائل لا سلمت وآخر قال ألا يا سلمى

والتي استقها من قول هذا الشاعر الذي يقول في بيته:

ألا يا سلمى يا دار مي على البلى ولازال منهلا بجرعائك القطر⁽²⁾

وكما أخذ أبو العلاء المعري عن الشعراء بعض الألفاظ، نجد يأخذ المعاني والأفكار منهم وهذا ما يظهر

في قوله حين شبه الليل بالبحر قال:

كأن دجاه الهجر، والصبح موعدا بوصل وضوء الفجر حب مماطل

قطعت به بحرا يعبّ عبابه وليس له إلا التبليج، ساحل

فالبيت الأخير يشبه قول امرئ القيس حين قال:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الموم لبيتلي⁽³⁾

ويقول شاعر آخر:

يغطي عيوب المرء كثرة ماله يصدق فيما قال وهو كذوب

ويرزي بعقل المرء قلّة ماله يحمفه الأقسام وهو لبيب⁽⁴⁾

فأخذ عنه المعري هذا المعنى ويظهر في قوله:

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص : 462 .

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص : 763 .

(3) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 109 .

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص : 462 .

أبو جد في الورى نفر طهارى
بنات العمّ تأباها النصارى
كنت الفقير فخطت لك صيب
أم الأقبام كلهم رجوس
وبالأخوات أعرت المـجوس
ورزقت إثراء فليل مقرطس⁽¹⁾

كما أنه لم يكتف بأخذ الألفاظ والمعاني فقط عن الشعراء بل تعدى إلى توظيف أسمائهم وألقابهم والاستشهاد بمقاطع من أشعارهم ويظهر ذلك في ذكره للحطيئة فقال:

قال دنيك أم قد أجاب مليكها
ويقول مستعملا امرأ القيس في قصائده:

فيها من الأبناء دعوة جرول^{(2)(*)}

بكى متشبهها بفتى حذام⁽³⁾

ألم تر لامرئ القيس بن حجر

ويقول عنه في موضع آخر:

إذ مال من تحته الغيبط⁽⁴⁾

أين امرؤ القيس والعذارى

ويقول أيضا:

أغص جميع الشائمين بريق⁽⁵⁾

كأنّ بريقا لامرئ القيس لامعا

ويقول عنه:

وصاحت ديار الحى أين لبيد

مضى الواقف الكندي والسقط غابر

وطالت ليال والمعالم بيد⁽⁶⁾

تولى ابن حجر لا يعود لشأنه

والكندي هو امرؤ القيس وقد أشار إلى مطلع معلقته بقوله:

بنازلة سقط العقيق بمثلها
دعا أدمع الكندي في الدُّمن السقط

فهنا الشطر الثاني من بيت المعري مأخوذ من قول امرئ القيس:

قفا نيك من ذكرى حبيب ومترل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل⁽⁷⁾

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 462.

(*) - جرول هو الحطيئة الشاعر المعروف بالهجاء.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 676.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 756.

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 507.

(5) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 579.

(6) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 213.

(7) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 298.

كما لم ينس المعري شعراء المعلقات فراح يوظفهم قي شعره ويشخص أهم مميزاتهم فيقول عن لبيد بن ربيعة:

أين لبيد وأين أسرته
وهو القائل أيضا عن عنترة العبسي:

هل ترى ناعيا كعنترة العبسي

يبكي على منازل عبلة⁽¹⁾

كما ذكر (ابن العبد) حيث قال:

وتعهد بن العبد بركة تُهمد

فمضى وشيكا واستقر الإبرق⁽²⁾

ونجده في مجال آخر يذكر السليك والشنفري :

تدبّ فإن وجدتْ خلصة

فيا للسليك أو الشنفري⁽³⁾

وبرغم اطلاع المعري على الشعر الجاهلي وتأثره به إلا أنه لم يكتف به لصقل موهبته وإثراء لغته بل التفت إلى الشعر الإسلامي والأموي والعباسي فأخذ بعض الألفاظ والمعاني من شعراء هذين العصرين من ذلك قول المعري:

ومضطغن عليك وليس يجدي

ولا يُعدي على الشمس اضطغان

فالحاقد عليك في نظر المعري كالحاقد على الشمس لا يضرها ولا ينقص منها شيئا وهذا قريب من قول المتنبي:

من كان فوق محل الشمس موضعه

فليس يرفعه شيء ولا يضع⁽⁴⁾

وقد قال في موضع آخر متأثرا بقول المتنبي حين مدح الحسين بن إسحاق التتوخي:

وسجايا محمد أعجزت في الـ

وصف، لطف الأفكار والأذهان

فهو شبيه بقول المتنبي حين قال عن ابن إسحاق:

لألقى ابن إسحاق الذي دق فهمه

فأبدع حتى جل عن دقة الفهم⁽⁵⁾

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 650.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 565.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 58.

(4) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 48.

(5) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 94.

وقد ظهر اقتباسه واضحا للمعنى في شعر أبي تمام، فيقول المعري مشبها أكابر الناس بالذرى وأصاغرهم بالأخفاف:

وتلقى رداهن الذرى والكواهل

تحامى الرزايا كل خف ومنسم

فهو شبيه في المعنى بقول أبي تمام حين قال:

عيدان نجد ولم يعبان بالرثم⁽¹⁾

إنّ الرياح إذا ما أعصفت قصفت

وقد تحدث عن الفرزدق فقال عنه:

يفر من خوف أبي جهضم⁽²⁾

ما خلت همّاما^(*) لو إتباعها

كما قد يضمن شعره عبارات أو ألفاظ بعينها لشاعر معين دون أن يتصرف فيها ولكنه قد يأتي بها في سياق مختلف غير السياق الذي سيقت فيه، ودليل ذلك ذكره للعجاج وبعض ألفاظه التي قالها في شعره فيقول:

بو قفة العجاج في سمس

هل سمس، فيما مضى عالم

فهو هنا يشير إلى قول العجاج:

بسمسم أو عن يمين سمس⁽³⁾

يا دار سلمى يا سلمى ثم اسلمي

ويشير المعري إلى شاعر آخر من الشعراء المعروفين بالنقائض ألا وهو (جرير) فيقول ذاكرة إياه في مطلع هاته القصيدة:

يرفض عنه ذكيّ المسك مفتوحا

ليست كزعم جرير، بل لها مسك

فهنا إشارة إلى قول جرير:

تراحم علجا صادري على كفل

لقد قوست أم البعيث ولم تزل

لها مسكا في غير عاج ولا ذبل⁽⁴⁾

ترى العيس الحولي جونا بكوعها

كما أشار إلى الوليد بن عبيد البحتري وهو من شعراء العصر العباسي حيث قال: وقال الوليد:

وأخطأ، سرب الوحش من ثمر النبع⁽⁵⁾

النبع ليس بمشمــــر

(1) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 110.

(*) - همام هو الفرزدق.

(2) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 330.

(3) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 331.

(4) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 294.

(5) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 263.

إضافة إلى أسماء الذين استقى منهم النحو والعروض والأوزان.

تولى سيبويه وجاش سيب من الأيام فاختل الخليل⁽¹⁾

ويقول:

ما النحو والشعر والكلام وما مرقش والمسيب بن علس⁽²⁾

ولأن العصر العباسي الذي عاش فيه أبو العلاء المعري هو عصر الحروب والصراعات وتكاثر الأحزاب والمذاهب، ظهر ذلك جليا في شعره حين كان يصور لنا أسماء أكبر المذاهب المنتشرة آنذاك فقال:

وعنوا فقال الشافعي ومالك وأبو حنيفة قبل والخصاف⁽³⁾

والمعري لا يستقي ألفاظه وعباراته من الشعر القديم فقط بل يستند إلى كلام العرب وأقوالهم وأمثالهم مثل قوله مبينا أن جعفر بن علي الذي رثاه هو مدفون قريب منهم ولكنه بعيد عنهم فاستدل باليد كدلالة على القرب مثلما كانت تفعل العرب، واستدل بالكوكب أيضا للدلالة على البعد فقال:

فبات أدنى من يد بيننا كأنه الكوكب في بعده⁽⁴⁾

ويقول:

إذا لاح إيماص^(*) سترت وجوهها كأني عمرو والمطي سعالي

فهو يشير هنا بهذا البيت إلى قصة عمرو بن يربوع الذي تزوج وحذروه من البرق الذي غفل عنه في يوم ما، فلما رأته زوجته قالت هذا البيت:

أمسك بينك عمرو إني أبق برق على أرض السعالي آلق⁽⁵⁾

فالبرق رمز لحنينها إلى وطنها، فسارت بذلك ولم يرها من بعد ذلك، كما أخذ عنهم قولهم للتعبير على الإنسان الذي لا يأتي إلا مرة واحدة يقول:

«وكانّ الهلال يهوي الثريا فهما، للوداع، معتقان

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 623.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 489.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 546.

(4) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 206.

(*) - الإيماص: هو لمع البرق.

(5) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 237.

فهو مأخوذ من قولهم: (ما يأتينا فلان إلا عدد القمر والثريا) و (إلاقران القمر الثريا) «⁽¹⁾.

ويقول:

«وإني مُثْرٍ، يا ابن آخر ليلة وإن عزّ مال، فالقنوع ثراء

(فيا ابن ليلة) يراد به الدم والتعير، لأن العرب تعتقد أن الأمّ إذا حملت في آخر ليلة من طهرها قبل الحيض جاء ولدها مذموما وهو ما يسمى بالوُضع⁽²⁾.

كما اعتمد على بعض الأمثال التي قيلت في سالف الأزمان من مثل:

«لابد للحسنة من ذام، ولا ذام لنفسي غير سيء بختها

فهو مأخوذ من المثل الذي يقول: (لا تعدم الحسنة ذاما) «⁽³⁾

ويقول:

«فوطئن أوكار الأنوق وروعت منها وبات المهر ضيف الهيثم

مستقى من أمثاله: (أعز من بيض الأنوق) و (أبعد من بيض الأنوق) «⁽⁴⁾

كما استعملت العرب قديما لفظة (قتاد) كمثل يضرب في الأمر الصعب قال المعري:

رآك شوك قتاد ليس يمكته ولو رآك غضيض النبت لا تبقلك⁽⁵⁾

كما لجأ إلى توظيف التاريخ مثلما نجده يقول موظفا التاريخ الإسلامي:

وعلى الدهر من دماء الشهيد دين علي ونجله شاهدان

يا ابن مستعرض الصفوف بيدر ومبيد الجموع من غطفان

أحد الخمسة الذين هم الأغراض في كل منطق والمعاني⁽⁶⁾

ويقول موظفا التاريخ العام:

(1)- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 90.

(2)- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 83.

(3)- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 210 .

(4)- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 71.

(5)- أبو العلاء المعري : اللزوميات، ج2، ص: 607.

(6)- أبو العلاء المعري : سقط الزند، ص: 92.

وما نأت القرابة من رجال أبوهم يافث وأبوك سام⁽¹⁾

فكما هو معروف يافث وسام أولاد نوح عليه السلام، ويافث هو أبو الأتراك والصقالبة ، أما سام فهو أبو العرب وفارس والروم.

ويقول:

وكما عاد أباد وكم ثمود أتاها صالح ذات المزار⁽²⁾

وقد عدّد إضافة إلى أسماء كل من قبيلة عاد وثمود، أسماء قبائل أخرى عربية وغير عربية كانت موجودة في القديم وهي على حدّ قوله:

هل فارس والروم والترك أو ربيعة أو مضر أو سبأ
ناجية في عز أملاكها أن يظهر الدهر لها ما خبا⁽³⁾

ويقول:

لتذكر قضاة أيامها وتُزّه بأملاكها حمير
فعامل كسرى على قرية من الطّف، سيدها المنذر⁽⁴⁾

«ويقول مشيرا إلى تلك القصة التي ذكرت في التاريخ من أن موسى نبي الله وجه (يوشع بن نون) إلى أريحا فقتل الجبابرة وبقيت منهم بقية فحشى أن يحول الليل بينه وبينهم فدعا الله بأن يجبس عليهم الشمس ففعل فهو يقول مشيرا إليها:

ويوشع رد يوحا بعض يوم وأنت متى سفرت رددت يوحا
فنال محبك الدارين فوراً وذاق عدوك الموت المريحاً⁽⁵⁾.

ويمكن القول أنّ أبا العلاء المعري قد عاد في تكوين معجمه الشعري وإثرائه إلى القرآن والتراث والتاريخ وعودته إليهم لا يعني نقصا في أسلوبه وقدراته ولا يطعن في شاعريته ولا يحطّ من قدره ما دام أنه يصوغ المعاني القديمة صياغة مبتكرة، ويوظف الألفاظ توظيفا جديدا.

(1) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 711.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 381.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 53.

(4) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 222.

(5) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 63.

و قد تميّز معجم المعري "بالتكرار" « فهو ظاهرة لغوية من حيث اعتماده في صورته البسيطة والمركبة على العلاقات التركيبية بين الكلمات والجمل، والمراد به هو إعادة ذكر حرف أو كلمة أو عبارة بلفظها ومعناها في موضع آخر أو مواضع متعددة الأحداث»⁽¹⁾.

ويظهر لنا تكرار اسم فعل الأمر في قوله:

هيهات هيهات هذا منطلق كذب في كل صقر زمان كلئن قطم⁽²⁾

أما تكرار كلمة بعينها في البيت الواحد فيظهر في قوله:

فلو سمح الزمان بما لفنت ولو سمحت لفنّ بها الزمان⁽³⁾

وقوله:

وييدي لدنيا الفتى وجه ضاحك وما فتئت تبدي له وجه عابس⁽⁴⁾

ويقول:

إنّ دمعي نبع وما العود نبع وحوافي من منزل الهم ربع⁽⁵⁾

فلاحظ أنّ الشاعر قد كرر كلمة معينة في كل بيت، فنلمح في البيت الأول تكرار لفظة (الزمان) وفي البيت الثاني تكرار لفظة (وجه) وفي البيت الثالث تكرار لكلمة (نبع) وكل هذه التكرارات بمثابة نغمة تصور المشهد بكامله وتعبّر عن جو القصيدة.

ويكون التكرار جملة نحو:

وإن كان غيث، فأعده عن بلاده وإن كان موت، فاسقها من زؤامه⁽⁶⁾

ونحو قوله أيضا:

وطال وقت علي ماض فغادره بلا جهار ولا أثر ولا أثر⁽⁷⁾

وقوله:

(1) - رمضان الصباغ : في نقد الشعر العربي المعاصر، دار الوفاء، (د، ط، د، ت)، ص: 211.

(2) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 710.

(3) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 46.

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 471.

(5) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 528.

(6) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 104.

(7) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 364.

لقد زارني طيف الخيال فهاجني فهل زاور هذي الإبل طيف الخيال⁽¹⁾

ويكرر عدة كلمات في البيت:

فإني رأيت الحزن للحزن ماحيا كما خُط في القرطاس رسم على رسم⁽²⁾

كما قد يكرر كلمة في عدة أبيات من مثل قوله:

كبرت فأصبحت للراشدين كبرت يعدّ هدي دليلا
كبرت فما زال هذا الزمان كبرت يجذ قليلا قليلا⁽³⁾

وقد يشمل التكرار عدة أبيات وأحسن مثال قوله:

عصر شتاء، وعصر قيظ وعيد فطر وعيد نحر
ويوم نعمى، ويوم بؤس ونحن في خدعة وسحر⁽⁴⁾

ويقول:

بشاشة أيام مضت وشببية بشاشة خانت أهلها وبشاش
وما زال هذا الدهر يثني جوامحا بلحم ويثني مقرما بخشاش⁽⁵⁾

وهكذا، فإن التكرار في أسلوب المعري ينطوي على أهمية إيجائية بالغة إذ يأتي به لتأكيد المعنى والإلحاح عليه.

وألاحظ من خلال تتبعي لموضوع الاغتراب عند هذا الشاعر ميزة أخرى من ميزات معجمه الشعري وهو استعماله الواسع لأدوات الاستفهام وذلك للإفصاح عن غربته وحالته الشعورية؛ منها صيغة الاستفهام: «فهي المعول عليها في شعر الغربة، وهي الأساس في البناء، إذ أن الشاعر المغترب يعاني مصيرا مجهولا بين هجرة، وسجن، ووطن ضائع، وقيم عربية إسلامية زائلة، ولا يدري سوى أنه يرسل ذلك الاختناق في شكل أسئلة حيرى، تنم عن عميق الإحساس بالغربة التي فرضت عليه...»⁽⁶⁾ وقد وظفت هذه الأدوات لتؤدي معاني عديدة وممتنوعة، وهذا ما سنحاول توضيحه.

يقول:

(1) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 231.

(2) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 171.

(3) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 651.

(4) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 370.

(5) - أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 491.

(6) - عمر بوقرورة: الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث، ص: 233.

أخسین قد أفنیتها لیس نافعی بتأخر یوم أن أعض علی خمس⁽¹⁾

ویقول:

أصبح فی الدنیا کما هو عالم وأدخل ناراً مثل قیصر أو کسری⁽²⁾

ویقول فی موضوع آخر مستفسراً عن الفراق والرحیل من الدنیا:

متی أفارق دنیای الی غدرت ویدرک اسمی فی الأسماء تطلیس⁽³⁾

کما نجده یتستفهم عن هذا الموت الی هو بالتأکید سوف یفکه من تلك المعیشة - بحسب رأیه -

یقول:

أیفکنی هذا الحمام تفضلاً فالعیش أو ثقنی وشد رباطاً⁽⁴⁾

ویقول:

خاللت تودیع الأصادق للنی فمتی أودع خلی التودیعا⁽⁵⁾

ویقول أیضاً:

وهل یجزن الدمع الغریب قدومه علی قدم کادت من اللیل تنهال⁽⁶⁾

ویقول مستفهما فی أكثر من بیت:

أقول، وقد طال لیلی أما لشباب الدجی من مشیب؟

أقصت نسور نجوم السماء فلم تستطع فهضة للمغیب؟⁽⁷⁾

فهو هنا یتستفهم بالأداة (أما) وغرضه الاستفسار عن الشباب الی دام طویلاً ولم یجن مشیبه.

کما نلاحظ فی أشعار المعری ظاهرة أخرى وهي مزج التعجب بالاستفهام فی آیات القصیدة الواحدة

وهذا ما یظهر فی قوله:

وهل کفّ طعن عنکم ونضال؟ بنی غدر! هل ألفتهم الحرب مُرّة

وهل أظلمت سحم اللیالی علیکم وما حان من شمس النهار زوال؟

(1)- أبو العلاء المعری: اللزومیات، ج2، ص: 467.

(2)- أبو العلاء المعری: اللزومیات، ج1، ص: 62.

(3)- أبو العلاء المعری: اللزومیات، ج2، ص: 459.

(4)- أبو العلاء المعری: اللزومیات، ج2، ص: 513.

(5)- أبو العلاء المعری: سقط الزند، ص: 309.

(6)- أبو العلاء المعری: سقط الزند، ص: 245.

(7)- أبو العلاء المعری: سقط الزند، ص: 127.

وهل طلعت، شعث النواضي عوابسا رعال ترامي خلفهن رعـال؟⁽¹⁾

ويقول:

فيا برق! ليس الكرخ داري، وإئتما رماني إليه الدهر منذ ليال

فهل فيك، من ماء المعرة قطرة تغيث بها ضمآن ليس بسال؟⁽²⁾

وقد استعمل الشاعر أداة الاستفهام (هل) والغرض منها هو النفي الإنكاري، فالشاعر مثلاً في البيتين الأخيرين أراد أن يستفهم بعدما ذكره البرق بوطنه المعرة عن ماء بلاده الذي في نظره لن يضاهيه أي ماء وفي أي بلاد.

ويقول مستفهما ومتعجبا من المرأة التي كرهته لمشيبيته بالرغم من أنه لا ذنب له في هذا المشيب:

خبريني! ماذا كرهت من الشيـــــــــــــــــــــــــــــــــب

ب، فلا علم لي بذنب المشيب

أضيء النهار، أم وضوح اللـــــــــــــــــــــــــــــــــؤ

لؤ، أم كونه كتغفر الحبيب؟⁽³⁾

والآن يمكن تسطير ملاحظة مضمونها أن أساليب الاستفهام جاءت في أغلبها معبرة عن نزع تشاؤمية قلقة من هذا الواقع الذي كان يعيشه المعري ومرد ذلك إلى غربته ومعاناته وحالة القلق التي كان يعيشها دائماً، وقد لعب الحرفان "أ" و "هل" الدور الرئيسي في التعبير عن تلك المعاناة.

كما نجد إضافة الى هذه الخصائص خاصة أخرى تميز معجم الاغتراب عند المعري وهو المزج بين هذا الموضوع وموضوعات أخرى؛ أي المزج بين الاغتراب والطبيعة والاغتراب والغزل، والاغتراب والرثاء وغيرها.

فمن جميل شعره الذي زاوج فيه بين الاغتراب والطبيعة قوله:

سرى برق المعرة بعد وهن فبات برامة يصف كاللا

شجا ركبا وأفراسا وإبلا وزاد، فكان أن يشجو الرحالا

بها كانت جيادهم مهـارا وهم مُردا، وبزلهم فصـالا⁽⁴⁾

(1) أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 215.

(2) أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 240.

(3) أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 412.

(4) أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 28.

لقد أولى عناية فائقة للألفاظ إذ اتجه إلى الطبيعة وحرص على انتقاء كلمات قادرة على التعبير عن شوقه وحنينه في رقة وعضوبة، فلم يجد أكثر من البرق، والأفراس والإبل وهي ألفاظ سهلة ومتداولة ويقول دائما في هذا السياق:

وأبغضت فيك النخل، والنخل يانع وأعجبتني من حبك الطلح والضال⁽¹⁾

إلى أن قال:

إذا جُنَّ ليلى جُنَّ لي، وزائد خفوق فوائدي كلما حقق الآل
وماء بلادي كان أنجع مشربا ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال⁽²⁾

من يقرأ هذه الأبيات يحس بذلك التفاعل بين الشاعر والطبيعة والتي أثارت في نفسه كوامن الشوق والحنين إلى وطنه فنجدّه يوظف في هذه الأبيات مظاهر من الطبيعة كالنخل والطلح والليل والماء، وهي كلها مظاهر تعكس حنين الشاعر وشوقه إليها، فهي بمثابة معادلات موضوعية تذكر الشاعر بموطنه وبماء بلاده وبكل شيء فيها فهو جميل في نظره، والخاصية الأخرى التي سوف نتوقف عندها الآن هي المزج بين الاغتراب والغزل، وهذا الاتجاه قليل جدا في ديوانه، ذلك لأن المعري كان صادقا عن النساء غير ميال إليهنّ بعيدا عن الحب والغزل.

ولكن وبرغم قلته في ديوانه " سقط الزند و اللزوميات " إلا أننا سوف نورد مقطوعة مازج فيها بين الغزل وموضوع الغربة يقول:

سنح العراب لنا، فبتّ أعيفه خبرا، أمض من الحمام لطيفه
زعمت غواذي الطير أن لقاءها بسّل، تنكّر، عندنا، معروفته
ولقد ذكرتك يا أمامة بعدما نزل الدليل الى التراب، يسوفه
والعيس تعلن بالحنين، إليكم ولغامها، كالبرس طار نديفه
فنسيت ما كلفتنيه وطالما كلفتني ما ضرني تكليفه
وهواك عندي كالغناء، لأنه حسن لذي ثقيله وخفيفه⁽³⁾

و الآن يمكن تسجيل بعض الخصائص والملامح التي ميّزت معجم الاغتراب في شعر أبي العلاء المعري، التي من بينها أنه يستمد مادته الشعرية وطاقاته التعبيرية من التراث الشعري المتمثل في القرآن الكريم

(1)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 243.

(2)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 247.

(3)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 226-227.

والحديث النبوي الشريف و شعر العرب وكلامهم إضافة الى الأمثال والتاريخ الإسلامي والعام، ولكن وبالرغم من أنه يقتبس منهم بعض الألفاظ والمعاني، والتي قد توحى - كما أسلفنا - إلى النقص في القدرة على التعبير إلا أنه لا يمكن لأحد أن ينفي عنه الخيال الواسع والقدرة العجيبة على خلق وتوليد الألفاظ والصيغة الجديدة، والتنوع في الأساليب من خبري إلى إنشائي وهذا للتعبير عن غربته وحنينه. وأسلوبه يمتاز بالغموض نوعاً ما، كما طغى على شعره الصبغة التشاؤمية، وقد كان للواقع الذي عاشه المعري وحياته بمختلف مؤثراتها الدور البارز في إذكاء نار التشاؤم عنده مما انعكس على الألفاظ والعبارات التي كان يستعملها في شعره.

ب- الصورة الفنية:

لقد اعتبرت الصورة الفنية ثاني عنصر من عناصر التشكيل الفني، اعتمدها المعري للتعبير عن غربته وحنينه.

وهي «في اللغة إحدى ظواهر الطبيعة»⁽¹⁾، كما أنها «ثمره الخيال ومقياسها أن تكون سريعة الانطباع شديدة الرسوخ في نفس السامع أو القارئ تنقله من مجرد الحقيقة إلى جوّ جديد ينفع فيه مع صاحبها فتحرك خياله وتشرك مشاعره»⁽²⁾.

فالصورة وثيقة الصلة بالخيال الذي يعمل على التأليف بين الأجزاء المختلفة التي تكونها وعن طريقه: «تنفذ الصورة إلى مخيلة المتلقي فتنتبع فيها بشكل معين وهيأة مخصوصة ناقلة إحساس الشاعر اتجاه الأشياء، وانفعاله بها وتفاعله معها»⁽³⁾.

فالخيال له الدور الرئيسي في بناء الصورة الشعرية فهو إضافة إلى دوره في توحيد العناصر والأجزاء التي تكونها فإنه وسيلة يتم عن طريقه استحضار المدركات السابقة بعد أن غابت عن متناول الحس، ونظراً لأهميته حاولت التطرق إليه وشرحه ولو باختصار.

يقوم الخيال وفق التصور القديم على مقومين أساسيين هما العقلانية والحسية، أما المقوم الأول فيتعلق بالعقل الذي يتحكم في المخيلة ويوجهها وقت تكوين الصورة الشعرية حتى يجنبها مغبة الزلل والانحراف، وأما المقوم الثاني فيتعلق بأشكال وصور المدركات المحفوظة في الذاكرة بعد غيابها عن مجال

(1) عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري، إتحاد كتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2003، ص: 22.

(2) محمد الطيب محمد النادي: تاريخ الأدب والنصوص الأدبية، مكتبة الوحدة العربية، الجزائر (د، ط، د، ت)، ص: 336-337.

(3) الأخصر عيكوس: الخيال الشعري وعلاقته بالصورة الشعرية، مجلة الآداب، ع1، 1415 هـ / 1994 م، جامعة قسنطينة، ص: 77.

الإدراك المباشر⁽¹⁾، وهذا ما يوضحه "باوند" بقوله: « هي تلك الحقائق التي تمثل مركبا من العقل والعاطفة في لحظة من لحظات الزمان»⁽²⁾.

ويبدو أنّ الخيال وعلاقته بالصورة كان محل اهتمام الكثير من النقاد العرب وغير العرب، فمن النقاد العرب نجد جابر عصفور الذي يقول بأنه « القدرة على تكوين صورة ذهنية لأشياء غابت عن تناول الحس، ولا تنحصر فاعلية هذه القدرة في مجرد الاستعادة الآلية لمدرجات حسية ترتبط بزمان أو مكان بعينه، بل تمتد فاعليتها إلى ما هو أبعد وأرحب من ذلك، فتعيد تشكيل المدركات، وتبني منها عالم متميز في جدته وتركيبه، وتجمع بين الأشياء المتنافرة والعناصر المتباعدة في علاقات فريدة، تذيب التنافر والتباعد وتخلق الانسجام والوحدة»⁽³⁾.

أما الغربيون فقد حاولوا الوقوف عنده وتبيين أهميته من بينهم "وردز ورث" الذي يرى بأنه: « تلك القدرة الكيماوية التي تمتزج مع العناصر المتباعدة في أصلها والمختلفة كل الاختلاف، كي تصير مجموعا متألّفا منسجما»⁽⁴⁾، وهو أنواع منها « الخيال الحسي وهو الذي ينتزع مادته من المحسوس والخيال التأملي الذي ينطلق من المحسوس إلى اللامحسوس. والخيال التحليلي الذي يذهب في العمق أكثر مما يذهب في الطول»⁽⁵⁾.

إذن وبعد هذه الإطلاقة السريعة حول الصورة والخيال التي تناولها النقاد على اختلاف المذاهب الأدبية، نجد أن تعريف " غنيمي هلال" لها هو أشمل تعريف؛ فهو يقول: « الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة هي الصورة في معناها الجزئي والكلبي، فما التجربة الشعرية كلها إلا صورة كبيرة ذات أجزاء هي بدورها صورة جزئية تقوم من الصور الكلية مقام الحوادث الجزئية من الحدث الأساسي في المسرحية والقصة»⁽⁶⁾.

والآن بعد هذه الوقفة القصيرة والسريعة التي كانت حول الصورة الشعرية بصفة عامة سوف نحاول بعدها تتبعها في ديواني المعري ضمن موضوع الاغتراب على وجه التحديد لتقصي تجلياتها، ومعرفة الوسائل المستخدمة في تشكيلها والإحاطة بكيفية توظيفها في هذا المجال.

(1) ينظر جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1992، ص: 85.

(2) عمر يوسف قادري: التجربة الشعرية عند فدوى طوقان بين الشكل والمضمون، دار هومة، (د، ط، د، ت)، ص: 71.

(3) جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص: 13.

(4) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص: 389.

(5) السعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث، دار النهضة العربية ، بيروت، لبنان (د، ط)، 1984، ص: 152.

(6) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص: 417.

والصورة الشعرية لها أوجه عديدة تعبر عنها وتوضحها كالتشبيه والاستعارة والكناية والطباق والجناس وغيرها من الأنواع التي تجسدها لنا، فهي تجمع بين الصورة البيانية والصورة البديعية. فأول صورة نبينها هي الصورة التشبيهية التي إذا ما أسقطناها على موضوع الاغتراب لدى الشاعر نجدها كثيرة نوعا ما وهي تأتلف في مجملها وتعكس لنا معاناته النفسية وغرته الزمانية، فنجد تارة يشبه الليل وتارة أخرى الزمان والدنيا والأصدقاء والناس، وهي كلها ألفاظ دالة على الغربة وتصلح أن تكون صورا.

فقد شبه الزمان أو الدهر على نحو قوله:

الدَّهرُ كالشاعرِ المقوي ونحن به مثل الفواصل مخفوض ومرفوع⁽¹⁾

فقد شبه الشاعر الدهر الذي كان فيما سبق من أهم الألفاظ الدالة على الاغتراب الزماني الذي استحوذ على عدد كبير من التكرارات في ديوانه شبهه بشاعر استعمل الإقواء فيرفع روي هذا البيت تارة ويخفضه تارة أخرى، مثل الدهر والإنسان فيه لا يستقر على حال، ويقول عنه أيضا:

كأن الدهر بحر نحن فيه على خطر كركاب السفين⁽²⁾

ويقول:

كأن خطوب الدهر بحر فمن يمت بفرط صداه فهو في اللج يسبح⁽³⁾

ويقول:

وما العمر إلا كالبناء فإن يرد على حده فهو الرقيع المشيد⁽⁴⁾

ولأن الشاعر تعمق في هاته الحياة ففهم خباياها وأسرارها استطاع أن يشبه لنا هاته الحياة بالنار وهي صورة تعكس مدى تمكن الشاعر وقدرته على التأليف بين الأجزاء فهو يقول:

وكالنار الحياة فمن رماد أو آخرها وأولها دخان⁽⁵⁾

فالحياة عنده لا ينتفع بأولها ولا بآخرها مثل النار التي لا ينتفع بدخانها في البداية ولا برمادها وإنما بوسطها، وهو هنا يشير إلى مرحلة الشباب فهي أحسن مرحلة يمر بها الإنسان بعكس الصبا والشيخوخة

(1) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 526.

(2) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 822.

(3) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 189.

(4) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 208.

(5) أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 47.

ومثلما استعمل الشاعر أداة التشبيه (الكاف) أو (كأنّ) نجده يستعمل الأداة (مثل) في تشبيهه للدنيا ونعتها بمختلف النعوت يقول:

إن كانت الدنيا عروسا ترى
كالغول غالتك بتلوينها
فلتنصرف عنك بتعيسها
بين نقديها وتبنيستها⁽¹⁾

ويقول:

ودنياك مثل الإناء الخبث
وصاحبها مثل كلب ولغ⁽²⁾

كما شبهها بالسراب بقوله:

دنياك مثل سراب إن ضننت بها
ماء فخدع وإن عضبا فتهويل⁽³⁾

ولأنه فهم حقيقة هذه الدنيا التي يعيش فيها أراد أن يتعد وينأى عن الناس خاصة وأن احتكاكه بأهل زمانه جلب له المعاناة والأسى فقد شبه لنا الفتى المغترب مثل الشرارة بقوله:

مثل الفتى عند التغرب والنوى
مثل الشرارة إن تفارق نارها⁽⁴⁾

ويقول:

والخلّ كالماء يبدي لي ضمائره
مع الصفاء ويخفيها مع الكدر⁽⁵⁾

فمعاشرته للناس في زمانه جعله يتأكد من أن الناس لا يؤتمن جانبهم لأنهم لا يظهرون ما يخفون، فهم مثلما قال:

والناس كالنار كانوا في نشاءتهم
والدهر كالربيع لم يعلم بحالته
يستضوا السقط منهما ثم ينتشر
هل عند ذي الدار من سكاها خبر⁽⁶⁾

كما نلاحظ أن المعري قد استعمل نوعا آخر من التشبيهات وهو التشبيه البليغ وذلك في قوله:

ظن الدجى فضة الأظفار كاسرة
والصبح نسرافما ينفك مزوودا⁽⁷⁾

فقد شبه الظلام الحالك بالعقاب الكاسر بدون ذكر الأداة وشبه الصبح بالنسر لإشراكهما في اللون.

(1) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 485.

(2) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 539.

(3) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 620.

(4) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 347.

(5) أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 39.

(6) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 288.

(7) أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 224.

ويقول أيضا:

أصاح هي الدنيا تشابهه ميتة نحن حوالها الكلاب النوابح⁽¹⁾

واعتماده على هذا النوع من التشبيه له ما يبرره، لأن: « حذف وجه الشبه والأداة يوهم بإتحاد الطرفين وعدم تفاضلهما، فبعلو المشبه إلى مستوى المشبه به، وهذه المبالغة في قوة التشبيه إنما أن تذكر الأداة يفيد ضعف المشبه، وإلحاقه بالمشبه به، كما ذكر الوجه يفيد تقييد التشبيه وحصره في جهة واحدة»⁽²⁾. لقد توسع المعري في التشبيه وبرع فيه إلا أن الاستعارة كانت أكثر استعمالاً لأنها في نظره أقدر على استيعاب حالته النفسية والتعبير عنها في كلام مختصر ومفهوم لذلك حازت على النصيب الأوفر. والاستعارة هي: « تشبيه حذف أحد طرفيه وأداته ووجه الشبه فهي من المجاز اللغوي »⁽³⁾ وقد تفتن النقاد القدماء لأهميتها البلاغية ووظيفتها في إيصال المعنى المراد تبليغه، فهذا هو القاضي الجرجاني يوحى بأن يعول عليها في « التوسع والتصرف، وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر »⁽⁴⁾. أما النقاد اليونان فقد اعتبروا « أن امتلاك ناصية الاستعارة كان ولا يزال من أعظم الأشياء، لأنها الشيء الوحيد الذي لا يلحق، وهي أيضا سمة العبقرية الأصيلة »⁽⁵⁾.

فإذن الاستعارة ذات أهمية كبيرة تساعد في إيصال المعنى، وهي تعنى بنقل دلالة الألفاظ إلى غير ما وضعت له في الأصل، عن طريق تجريد المحسوسات، وتشخيص المجردات في كائنات حية تحس وتتحرك، وهي كلها توضح وتفصح عن المعنى المنشود وتصل إلى أعماق السامع وتؤثر فيه وهذا ما يفسره قول "أبي هلال العسكري" مبينا غرضها: « إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسن المعرض الذي يبرز فيه »⁽⁶⁾.

واستعارات المعري التي تصب في موضوع الاغتراب كلها تنصب حول الزمان والليل والدهر، والمنايا والأيام وغيرها من المواضيع والصور الاستعارية.

لننظر إليه و هو يتحدث عن المشيب :

(1) أبو العلاء المعري : اللزومات، ج1، ص: 189.

(2) عبد الحفيظ بولخراس : الغربية والحنين في شعر ابن حمديس الصقللي، رسالة ماجستير، جامعة فرحات عباس، سطيف، 2005، ص: 148.

(3) مصطفى أمين وعلي الجازم: البلاغة الواضحة، دار المعارف، ط16، (د،ت)، ص: 77.

(4) الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح أبو الفضل إبراهيم، علي البيجاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د، ط، د،ت)، ص: 428.

(5) محمد مصطفى أبو الشوارب: جماليات النص الشعري، (قراءة في أمالي القاضي)، ص: 122.

(6) أبو هلال العسكري: الصناعتين، الكتابة والشعر، حققه وضبط لغته: مقيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1989، ص: 295.

يكاد المشيب ينادي الغوي و يحك أتعبتني بالمقص⁽¹⁾

ويقول واصفا المنايا و سرعتها مصورا إياها وكأنها شخص يركض ركضا سريعا من أجل إحراز الهدف و الفوز :

وفات ركض المنايا ركب القطيب و بدوره⁽²⁾

أما الحجى عنده فهو بمتزلة إنسان يستطيع التكلم فيقول:

يقول الحجى هل لي إذا متّ راحة فإنّ عذابي في الحياة أليم⁽³⁾

فهو يصور لنا في هذا البيت مستعيرا صفة القول من الإنسان مطلقا إياها على العقل الذي كان يتساءل حول إذا ما كان سيستريح بعد الموت خاصة و انه يحس بالعذاب و المعاناة في هذه الحياة.

هذا و قد يبين الشاعر صورا جزئية و لكنها متكاملة فيما بينها و متألّفة تبرز لنا صورة كلية

و شاملة عن الموضوع و يظهر هذا الشكل في قوله:

كأنّ الليل حاربها ففيها هلال مثل ما إنعطفه السنان

ومن أمّ النجوم عليه درع يحاذر أن يمزقها الطعان⁽⁴⁾

هذا المشهد قائم على صور جزئية عند ضمها إلى بعضها البعض يتبدى لنا الليل وكأنه خشي من خيل الممدوح فأعد عدة لمحاربتها، فأشرع سنانا من الهلال، ولبس درعا من النجوم ، وهي كلها متكاملة فصورة الليل وهو خائف، وصورة السنان الذي صنعه من الهلال وصورة الدرع الذي لبسه من النجوم، تأتلف فيما بينها لتعطي لنا هذا المشهد الرائع لليل.

وللشاعر كلف كبير بتجسيم وتشخيص المعنى المجرد في صورة ملموسة تدرك الحواس، ولنتأمل معا هذه الصور يقول :

صاح الزمان فعاد الجمع مفترقا كالضأن لما أحسست صوت رئيال⁽⁵⁾

ويقول :

ركب الزمان إلى الحمام برغمه ورأى المنية ليس فيها مزعم⁽⁶⁾

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 501.

(2)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 267.

(3)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 706.

(4)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 52.

(5)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 666.

(6)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 716.

كما يشخص هذا الزمان فيجعله في هيئة إنسان وله يدان يقول :

وكأن في كف الزمان بنوره قطرا نعم بنشره الأقطار⁽¹⁾

ويقول أيضا :

وما كتبه يد للزمان فعن يده مرة يمتحي⁽²⁾

وهو يتمثله أعجميا ليس من العرب ولا يتقن لغتهم فيقول:

ووجدت الزمان أعجم فظاج وجبار في حكمها العجماء⁽³⁾

لكن وبالرغم من العجمة الموجودة في هذا الزمان إلا أنه أحسن وعاظ ، يعظ الناس ويرشدهم بحوادثه وأيامه وتجارب الإنسان فيه يقول :

وعظ الزمان فما فهمت عظاية وكأنه في صمته يتكلم⁽⁴⁾

كما نلتمس هاته الصور الاستعارية في حديثه عن الدهر والليل والأيام فهو يقول :

ولا أشرب الدهر سبل الشراب ونفسي بإعمالها مسيلة⁽⁵⁾

فالدهر بمزلة ماء يحاول الإنسان شربه، فهنا الشاعر حاول أن يثبت المشبه وهو الدهر وحذف المشبه به وهو الماء ولكنه ترك دلالة عليه وهو الشرب فالاستعارة تصريحية .
ويقول عن الليل :

فحرقن ثوب الليل حتى كأنني أصرت بها في جانبه شرار⁽⁶⁾

ويقول :

لو نطق الدهر في تصرفه لعادنا كلنا من التفث⁽⁷⁾

ويقول عنه:

يؤدبك الدهر بالحداثات إذا كان شيخاك ما أدبا⁽⁸⁾

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 305.

(2)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 201.

(3)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 46.

(4)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 716.

(5)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 651.

(6)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 123.

(7)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 168.

(8)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 99.

ويقول:

كم ينظم الدهر من مقد وينثر وليس عقد ثرياه بمنثر⁽¹⁾

فإذن كان الدهر بمتزلة إنسان ينطق ويؤدب وينظم الشعر وينثر وهي كلها سلوكات يقوم بها الإنسان الذي حذف ولكنه صرح بدلالات تنوب عنه وهو ما زاد المعنى رونقا وجمالا وأكسبه دقة ووضوحا وبالإضافة إلى هذا النوع من الاستعارات عمد الشاعر إلى توظيف نوع آخر من هذه الصور الاستعارية بحيث حذف المشبه به وترك المشبه وهي كثيرة في شعر المعري، والتي سوف نعود إلى ذكر بعض منها كقوله:

وقد أعتدى والليل يبكي تأسفا على نفسه والنجم في الغرب مائل⁽²⁾

فقد استعار هنا الشاعر صفة البكاء التي هي سمة من سمات الطفل أو الإنسان عموما وألصقه بالليل، فيكون بذلك قد ذكر المشبه وهو الليل وحذف المشبه به وهو الطفل ولكنه ترك دلالة عليه وهو البكاء، فهذه الصورة الاستعارية زادت البيت جمالا لشدة اتساق أسلوبها وجودة سبكها فجعل كل من يقرأ يتأمل في الطريقة التي كتب بها هذا البيت.

ويتكلم عن الأيام التي لطالما أرقته بسبب حوادثها فيقول عنها:

ألم تسمعي الأيام نادت صروفها حذوا مقرا مما تفيء الجوارس⁽³⁾

فالأيام شخص تنادي مثلما ينادي الإنسان.

كما يجعل من الدهر شخصا يصمت ويخطب فيقول:

الدهر يصمت وهو أبلغ ناطق من موجز ندس ومن ثثار⁽⁴⁾

ويقول عنه:

والدهر يخطب أهل اللب مذ عقلوا ما خاف عيا ولا أزري به العصر⁽⁵⁾

فهذه الصور تعتمد بالدرجة الأولى على التشخيص المعنوي فصورة الدهر في هيئة إنسان يصمت وهو باستطاعته التكلم، ويخطب في أهل العقول والحكمة.

(1) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 364.

(2) أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 108.

(3) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 452.

(4) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 398.

(5) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 289.

ونستنتج مما سبق أنّ المعري في تعويله على الاستعارة للتعبير بها عن غربته يستجيب لطبيعة شخصيته لأنه شخص يميل إلى الاستغراق في حالاته النفسية ووصفها وتشخيصها كما ينبغي حتى تتراءى للناس مثلما يريد .

كما التفت الشاعر إضافة إلى التشبيه والاستعارة إلى الكناية وهي قليلة عنده وتظهر في قوله كناية عن الموت والزوال :

والحي لابد راكب سفرا
وتارك من ورائه ثقله
لا يسلم الغادر المخدم في النيق
ولا أم غفرة الوقلة⁽¹⁾
ويقول مكنيا على الفراق:

إذا هبت النكباء بيني وبينكم
فأهون شيئا ما تقول العوازل⁽²⁾
كما نبّجه يقول:

مرحت كالفرس الذبال آونة
ثم اعتراك أبو سعد فقد شكلك⁽³⁾
فقد كنّ عن الهرم والكبر بلفظه أبو السعد:
ويقول كناية على الليل وطوله:

قد ركضنا فيه إلى اللهو ولما
وقف النجم وقفه الحيران⁽⁴⁾
ويقول أيضا :

قدماه ورائه وهو في العجب — ز كساع ليست له قدمان⁽⁵⁾

فقد كنّى عن طول الليل، فجعل نجومه لطوله وكأنها لا تسير من مكانها.

وهناك نمط تصويري آخر اعتمد عليه المعري والذي سوف نقف عنده وهو الصورة البديعية والتي كان لها دورا بارزا في بناء قصائده وهي : «وسيلة من وسائل التصوير الشعري لا تقف عند تجانس لفظتين أو تقارب عبارتين أو ترديد كلمتين ، بل تتعدى ذلك إلى إثارة مخيلة المتلقي ، ومخاطبة سمعه ، وبث الاندهاش في نفسه، وحمل ذهنه على التحليل والتركيب لكي يظفر بالمتعة الفنية»⁽⁶⁾.

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص : 647.

(2)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص : 106.

(3)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص : 606.

(4)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 90.

(5)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص : 91.

(6)- عبد الحفيظ بولخراس : الغربة والحنين في شعر ابن حمديس الصّقلي، ص: 154.

والطباق هو أول ظاهرة تصادفنا في شعر المعري فمنه مثلاً:

الحمد والكبر ضدان إتفاقيهما مثل إنفاق فتاء السن والكبر

يجني تزايد هذا من تناقص ذا والليل إن طال غال اليوم بالقصر⁽¹⁾

فهذان البيتان يحتويان على العديد من الطباقات من مثل (الحمد والكبر) و (تزايد، تناقص) و (طال، قصر).

ويقول:

يمسي ويصبح كوزنا من فضة ملأت فم الصادي كسور دراهم⁽²⁾

ويقول عن الدنيا:

وييدي لدنياه الفتى وجه ضاحك وما فتئت تبدي له وجه عابس⁽³⁾

ويقول:

إذا كنت في دار الشتاء مصلياً فإنك في دار السعادة سابق⁽⁴⁾

وتحضر صور الطباق بقوة في هذا البيت:

بعدي من الناس برء من سقامهم وقرهم للحجى والدين أدواء⁽⁵⁾

فقد تأكد الشاعر أن الناس لا يجنى منهم سوى الهم والبأس لذلك قرر البعد عنهم والانعزال.

كما نلمح بعض المقابلات في الكلام وهي تمتاز بالدقة والوضوح ، هذا ما يتأكد ونلمحه في

قوله:

فليت شباب قوم كان شيباً وليت صباهم كان إكتهالاً⁽⁶⁾

فعن طريق هذا البيت يتبين أن الشاعر عقد مقارنة بين مرحلتين مرحلة الشباب ومرحلة الشيب

والاكتهال، فوجد مرحلة الشيخوخة أحسن لذلك ظل يتمنى قدومها بفارغ الصبر، ويقول:

وقدما وجدنا مبطل القوم يغتدي فينصروالغادي مع الحق يخذل⁽⁷⁾

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 1، ص: 45.

(2)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 282.

(3)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 2، ص: 471.

(4)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 2، ص: 561.

(5)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 40.

(6)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 1، ص: 29.

(7)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 2، ص: 614.

فقد قارن بين الذي كان لا يسير مع قومه وعاداتهم وبين من كان مع الحق وهذا في الماضي، فوجدت بذلك عبارة (مبطل القوم)، في مقابل عبارة (والغادي مع الحق)، كما تقابل الفعل (يغتدي) مع (يخذل). فنلاحظ من الأبيات السابقة إتيان العناصر المتقابلة مرتبة كما أن الصور كلها تبنى على المقابلة. والمتمعن في ديواني أبي العلاء المعري يجد لونا بديعيا آخر اتخذه الشاعر واحدا من وسائله الفنية ألا وهو التجنيس^(*) وهو في شعره قليل ويظهر في مثل قوله:

زكن المنايا إن زكون فنعمة من الله دامت للزواكي الزواكن⁽¹⁾

وقوله:

قضاء الله يبتعث المنايا فيهلكن الأسود والأسود⁽²⁾

فالتجنيس انطلاقا من هذين البيتين في قوله: (الزواكي، الزواكن) و (الأسود والأسود). ومن الجناس الذي نعثر عليه بين طيِّات قصائد ديوانيه في مثل قوله:

كلاب تغاوت، أو تعاوت لجيفة وأحسبني أصبحت آلامها كلبا⁽³⁾

ويقول:

خير الحياة شرورها وسرورها من عاش غدة أول المتقارب⁽⁴⁾

فالجناس بين (تغاوت وتعاوت) وبين (سرورها ، شرورها).

وهكذا بعد الحديث عن الصورة الشعرية عند المعري يظهر لنا أنه استعمل كل طاقاته من أجل الإبداع كما لا أنسى الصور البديعية كالطباق والمقابلة والتجنيس، فكل واحدة من هذه الصور كان لها دور معين تلعبه وهذا ما زاد المعاني رونقا وأكسبها بريقا ولمعانا.

وقد لاحظت وأنا بصدد التحدث عن هذه النقطة من البحث بأن المعري وهو بصدد الحديث عن غربته كان ميالا إلى التطرق إلى غربته الزمانية وما تحتويه من مواضيع وفروع مثلما تقدمنا فكان يذكر الزمان والدهر كثيرا كما لا ينسى الدنيا والأيام والليالي وما فعلت به.

ج- البنية الإيقاعية:

(*)- التجنيس: أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منها صاحبتهما في تأليف حروفها على حسب ما ألف الأصمعي في كتاب الأجناس، أبي الهلال العسكري الصنائع، ص 353.

(1)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 809.

(2)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 240.

(3)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 81.

(4)- أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 119.

يعدّ الإيقاع الموسيقي من أهم العناصر التي يركز عليها الشعر لارتباطه بالغناء ارتباطاً وثيقاً ويخضع خضوعاً مباشراً لحالته النفسية التي يصدر عنها ونستطيع تعريف الإيقاع لغة واصطلاحاً، فجاء لغة في لسان العرب لابن منظور في مادة وقع قوله: «التوقيع أي رمي قريب لا تباعده وكأنك تريد أن توقعه على شيء يعني الإصابة مثل إصابة المطر بعض الأرض وإخطاؤه بعض، والإيقاع من إيقاع اللحن والغناء وهو أن يوقع الألحان وبينها»⁽¹⁾.

كما ورد تعريفه لغة في المنجد في اللغة المعاصرة بأنه: «يعني تتابع أصوات أو حركات بانتظام وتوازن»⁽²⁾.

أما اصطلاحاً فنجد تعاريفه تتعدّد عند الكثير من النقاد منهم ابن طباطبا العلوي فهو أول من استعمله في كتابه "عيار الشعر" يقول عنه: «والشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه، فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر وصحة المعنى وعذوبة اللفظ فصفا مسموعة ومعقولة من الكدر ثم قبوله، واشتماله عليه، وإن نقص جزء من أجزائه التي يعمل بها وهي: اعتدال الوزن وصواب المعنى، وحسن الألفاظ وكان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه»⁽³⁾.

وإذا اتجهنا إلى المحدثين والمعاصرين نجدهم يتعرضون لمسألة الإيقاع فمثلاً الدكتورة "خالدة سعيدة" يتجاوز عندها الإيقاع مجرد الوزن والقافية وتكرار الأصوات والمقاطع الصوتية فالإيقاع أعم منهم فهو يشملهم ويضمّمهم⁽⁴⁾.

أما مفهومه عند "صلاح فضل" فينطلق فيه من المستوى الخارجي للأصوات فيقول: «أما البنية الإيقاعية فهي أول المظاهر المادية المحسوسة للنسج الشعري الصوتي، وتعلقاته الدلالية»⁽⁵⁾.

ومنهم من تعرض له ولكن بصيغة مغايرة تماماً مثلما فعل "إبراهيم أنيس" و"شكري عياد" حينما استعملوا في مكان الإيقاع موسيقى الشعر⁽⁶⁾.

(1) ابن منظور: لسان العرب، مادة (وقع).

(2) صبحي حموي: المنجد في اللغة المعاصرة، دار المشرق، بيروت، ط1، 2000، ص: 1151.

(3) عبد الرحمن تيرماسين: العروض وإيقاع الشعر العربي، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1، 2003، ص: 80، 84.

(4) ينظر عبد الرحمن تيرماسين: العروض وإيقاع الشعر العربي، ص: 84-85.

(5) صلاح فضل: الأساليب الشعرية المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، (د، ط)، 1998، ص: 28.

(6) ينظر عدنان قاسم: الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر - دراسة نقدية في أصالة الشعر - منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1980، ص: 135.

وهناك من يستعمل مصطلح الموسيقى العروضية والموسيقى الداخلية، فالمصطلحات متنوعة وهي كثيرة ولكن المضمون - تقريبا - واحد.

وللإيقاع عناصر داخلية وخارجية فالعناصر الداخلية لها دور في إحداث الإيقاع « وهي كل ما يتعلق بالنغم الداخلي المنبعث من القصيدة»⁽¹⁾.

وقد عني بها "رجاء عيد": « قدرة الفنان الشاعر على إقامة بناء موسيقى يتكون من نفسية تملأ أو تقبض، تقسو أو ترف أو تتخذ لتكون في مجموعها لحنا منسقا أقرب إلى الإطار السمفوني»⁽²⁾.

كما يطلق عليها السعيد الورقي اسم الموسيقى التعبيرية ويرى بأنها: « ناتجة من كيفية التعبير ومرتبطة بالانفعالات السائدة ومهيأة لها في كثير من الأحيان، بما تعطيه من إيجاءات انفعالية لنمو التجربة الفنية»⁽³⁾.

وتتمثل هذه العناصر الداخلية فيما يلي: أسلوب التكرار سواء كان تكرار الحرف أو الكلمة أو العبارة أو حتى المقطع إن وجد، وطبيعة الكلمات المستعملة، وعلامات الوقف والترقيم بالإضافة إلى الأصوات وهو ما سنأتي على شرحه فيما بعد.

أما العناصر الخارجية للإيقاع فتتمثل في الوزن الذي يقول عنه ابن رشيق القيرواني: « الوزن أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة»⁽⁴⁾. وثاني عنصر خارجي هو القافية بنوعها المطلقة والمقيدة.

إذن بعد هذه النقلة في مجال الإيقاع والتي سوف نتبعها بالتفصيل لاكتشافها ومدى توفيقها في التعبير عن اغتراب المعري وذلك بالنظر إلى هاته العناصر الداخلية والخارجية.

تصادفنا أول ظاهرة إيقاعية وهو "الطباقي" فهو بارز في شعر أبي العلاء المعري له الدور في تعميق المعنى وتقويته وتوضيحه و يساعد على إضفاء إيقاع خاص على القصيدة، وقد اتكأ عليه المعري في تشكيلاته الموسيقية فيقول:

الحمد والكبر ضدان اتفاقهما مثل اتفاق فتاء السن والكبر
يجني تزايد هذا من تناقص ذا والليل إن طال غال اليوم بالقصر⁽⁵⁾

(1) خليل مرسي: الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، مطبعة الجمهور، دمشق، ط4، (د، ت)، ص: 93.

(2) رجاء عيد: التحديد الموسيقي في الشعر العربي، دار النهضة العربية، بيروت، 1984، ص: 10.

(3) السعيد الورقي: لغة الشعر العربي، ص 160.

(4) ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001، ج1، ص: 121.

(5) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 45.

فعلاوة عن الإيقاع الخفي الناتج عن تقابل الأضداد الواردة في البيت الأول والبيت الثاني، تتضافر معه عناصر موسيقية أخرى تكاملت فيما بينها لتساهم في تكوين بنية موسيقية، من بين هذه العناصر الوزن والقافية، ففيما يخص الوزن نلاحظ أنّ هذه الطبقات جاءت على إتفاق فيه وذلك من مثل (الحمد والكبر) على وزن فَعْلُ و (تزايد وتناقص) جاء على وزن تفاعل و (طال وقصر) على وزن فَعْلُ أيضا. وتفعيلة هذين البيتين هي تفعيلة بحر البسيط وهي كالتالي:

الحمد ولكبر ضدان اتفائيهما يجني تزايد هذا من تناقص ذا
 0///0//0/0/0///0//0/0/ 0///0//0/0/0//0/0//0/0/
 مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلمن مستفعلن فعلمن مستفعلن فعلمن

وبحر البسيط هو من حيث الانتشار أقل من البحر الطويل والكامل الذي وجد بكثرة وتفعيلاته هي مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن، وعندما تقسم هذا الوزن إلى مقاطع نجده يتكون من ثمانية وعشرون مقطعا طويلا وقصيرا في البيت الواحد، وموزعة بالتساوي بين الصدر والعجز، بحيث يحتوي كل واحد منهما على عشرة مقاطع طويلة وأربع مقاطع قصيرة، وذلك إذا اعتبرنا أن المقطع القصير يتكون من حركة [/]، والمقطع الطويل يتكون من حركة وسكون [0 /]، وانطلاقا من هذا التقسيم يتبين بأن البحر يمتاز بالثقل والبطء على اعتبار غلبة المقاطع الطويلة على المقاطع القصيرة.

وقد ترددت نغمة موسيقية مع القافية التي كانت في الحقيقة تنتهي بسكونين تفصل بينهما حركتين وهي القافية المتداركة ولكن وللضرورة الشعرية تحولت تفعيلة (فاعلن)، في البحر البسيط إلى (فاعلن)، أي هي تفعيلة عبارة عن مقطعين قصيرين ومقطع طويل ولذلك، ونتيجة هذا التغير أصبحت القافية متراكبة وهي القافية المنتهية بسكونين مفصولين بثلاث حركات. [0 // /]، كما نلمح نوعا آخر من الطباق وهو الذي يقول فيه:

يمسي ويصبح كوزنا من فضة ملأت فم الصادي كسور دراهم⁽¹⁾

نلاحظ أن وجهي التطابق وهما (يمسي، يصبح)، جاءت على وزن واحد وهو يُفْعَل، والقافية هي (راهم)، والروي هو حرف (الميم)، وما قبله يعدّ دخيلا^(*) وهو (هـ)، أما (الألف) فهي ألف التأسيس ويقول أيضا:

تعب ما نحن فيه وهل يجلب الإيجاش إيناسا

(1) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 282.

(*) - الدخيل: حرف واقع بين التأسيس وحرف الروي، عبد الرحمن ترماسين، العروض وإيقاع الشعر العربي، ص: 39، 41.

يتبين أنّ لفظي (إيحاء، وإيناسا) لهما وزن واحد فهما على وزن إفعال والروي هو (السين) وقبل الروي يوجد الردف المتمثل في (الألف) وقد يكون (واواً) أو (ياءً).

وللمقابلة أيضا قيمة موسيقية إلى جانب الطباق هذا ما نشاهده لما نقرأ ما يلي:

فليت شباب قوم كان شييا وليت صباهم كان إكتهالا

فيبدو واضحا توافق وتساوي الكلمة منها مع ضدها في الإيقاع والترتيب وهذا ما يظهر في (شباب شييا) و (صباهم ، إكتهالا).

ويقول:

فأوصيكم أما قبيحا فجانباوا وأما جميلا من فعال فلا تقلوا
وصاحب نكر بات يغدر بيننا وفاعل المعروف بلام ويعذل

نلاحظ هنا انسجام وتوافق في الأوزان بين (قبيحا، جميلا) و(جانباوا، تقلوا)، (صاحب نكر وفاعل معروف) و(يعذر ويعذل) فهذا التوافق في الأوزان أضفى إيقاعا مميزا على البيت مما أكسبه رونقا وجمالا.

ومن الظواهر الصوتية البارزة في شعر أبي العلاء المعري " التكرار " فهو ظاهرة إيقاعية تعمل على تقوية النغم وتأكيده وقد يكون تكرارا للحروف أو الكلمات أو العبارات .

ومن الشواهد التي يمكن تقديمها كمثال على التكرار لبعض الحروف والأصوات والذي ينعكس جرسها على النص الشعري فتؤدي وظيفة إيقاعية تتناسب مع المعنى قوله:

أناس كقوم ذاهبين وجوههم ولكنهم في باطن الأمر نسناس
جزى الله عني مؤنسي بصدوده جميلا ففي الإيحاء ما هو إيناس
تخافين شيطانا من الجن ماردا وعندك شيطان من الإنس خناس

فنلاحظ في هذه المقطوعة تكرار حرف السين، سواء الذي يتكرر عن طريق حرف

الروي، أو الذي يتخلل الأبيات بتكراره مرة فما فوق في كل بيت مما أدى إلى تجاوب الأحرف المكررة

داخل الأبيات - مثلة في حرف السين مع حرف الروي، فشكلت بناء هندسيا منظما هيمن على

موسيقى هذا المقطع، وانطلاقا من هذا القول يتبين أنّ حرف السين تكرر (7) مرات في هذه

المقطوعة، ففي البيت الأول نجد إضافة إلى حرف السين كروي حرفين آخرين أما في البيت الثاني فتكرر

فيه حرف السين مرتين وكذا بنفس الدرجة في البيت الثالث - أي تكرر مرتين-.

كما لفت انتباهنا ظاهرة إيقاعية أخرى وهي التنوين بالضمة في (أناس) والتنوين بالفتحة في كل من (جميلا، شيطانا، ماردا) والتنوين بالكسرة في (قوم)، فقد أضفى بدوره نغما وجرسا خاصا على الأبيات.

ولا تكتمل الأهمية الإيقاعية للتكرار الصوتي إلا إذا ربطناه بالإيقاع الناتج عن الوزن، لذلك سوف نرى إلى أي مدى وفق الشاعر في اختيار الوزن ومدى ملائمة هذا الأخير لموضوعه وتجاربه عموما.

وهذه الأبيات تنتمي إلى بحر الطويل وهو الأول من حيث التنوع في ديواني المعري وتفعيلات الطويل الأصلية هي فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن ولكي نتبين حركاته يتم تقطيعه كالاتي:

ولاكنهم في باطن الأمر نسناسو	أناسن كقومن ذاهبين وجوههم
0/0/0//0/0//0/0/0//0/0//	0//0///0//0/0/0//0/0//
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن	فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

وعندما نقسم هذا الوزن إلى مقاطع نجده يتكون من (28) مقطعا طويلا وقصيرا، فالمقاطع الطويلة أكثر من المقاطع القصيرة لأنها تستحوذ على عشرين مقطعا طويلا، والثمانية المتبقية هي مقاطع قصيرة ونلاحظ أن القافية هنا في هاته الأبيات هي قافية مطلقة (*) حركتها الضمة ورويها حرف السين وقبلها الردف المتمثل في الألف، وكرّر حرف (العين) في قوله أيضا:

كم بلدة فارقتها ومعاشر	يذرون، من أسف عليّ دموعا
وإذا أضاعني الخطوب، فلن أرى	لوداد إخوان الصفاء مضيعا
خاللت توديع الأصادق للنوى	فمتى أودع خلي التوديعا؟! (1)

نلاحظ من خلال هذه الأبيات أن حرف العين مكرر ثماني مرات، ففي الشطر الأول تكرر (3) مرات وتظهر في كل من (معاشر، علي، دموعا) وفي الشطر الثاني تظهر مرتين في حرف الروي (مضيعا) وأيضا في الشطر الأول من البيت الثالث وهي (أضاعني).

(*) - مطلقة وهي متحركة الروي: عبد الرحمان تيرماسين، العرض وإيقاع الشعر العربي، ص: 39، 41.

(1) - أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 309.

كما نلاحظ في البيت الثالث تكرار حرف العين (3) مرّات في كل من (توديع، أوّدع، أضععتني) إضافة الى كثرة الشدة والتي تظهر في الحروف التالية (نّ، دّ، لّ، تّ) فهي تنسجم انسجاما كبيرا مع غربته عن أهله وأصدقائه فتزيد بذلك المعنى تركيزا وتأكيّدا.

ومن الأبيات التي اعتمد فيها على تكرار بعض الحروف قوله:

طربن لضوء البارق المتعالي ببغدادا، وهنا ما لهن وما لي
سمت نحوه الأبصار حتى كأنها بناريه من هنا وتم وصالي
إذا طال عنها سرها لو رؤوسها تمد إليه في رؤوس عوال⁽¹⁾

ما نلاحظه في هذه الأبيات هو تميز كل بيت بخصيصة إيقاعية بارزة تتماشى والمعنى ، فالبيت الأول على سبيل المثال يشكل فيه تكرار حرف (الباء) ميزة خاصة إذ أنه تكرر (أربع مرات) عندما نتقل إلى البيت الثاني نجد حرف (الهاء) مكرر (أربع مرات) وهو حرف هوائي، فهو بالرغم من انتشاره في كامل المقطوعة إلا أنه انتشر أكثر في هذا البيت وقد اعتمد فيه على المد (ها) الذي ساعده في تأوّه وتوجعه لفقد وطنه والبعد عنه.

والشطر الثالث نلاحظ تكرار (حرف السين) ثلاث مرات وهو حرف مهموس.

والبحر الذي ارتضاه الشاعر لهذا الموقف الحزين هو البحر الطويل:

طربن لضوء لبارق لمتعالي ببغداد وهنا ما لهنن وما لي⁽²⁾
0/0// /0// 0/ 0/ 0/ / 0/0// 0/0//0/ /0/ 0 /0// /0//
فعول مفاعيلن فعول مفاعل فعولن مفاعيلن فعول مفاعل

كما نجد مقطوعة أخرى يظهر فيها الشاعر حنينه إلى وطنه متلهفا إلى العودة للقاء أهله ووطنه يقول:

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطمأنت بي لحال
فأذهل أبنى بالعراق على شفى رذي الأماني، لا أنسى ولا مال
مقل من الأهلين سير وسيرة كفى حزنا بين مشت وإقال⁽³⁾

(1)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 237.

(2)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 237.

(3)- أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 247-248.

ففي البيت الأول تكرار حرف (التاء) ست مرات، والبيت الثاني (الألف) تكررت أربع مرات والبيت الثالث تكرر حرف (اللام) أربع مرات كذلك، والبيت الرابع تكررت (الياء) أربع مرات. كما نلاحظ كثرة الحروف المهموسة وهي الأبيات كالتالي (أ،ت،س،ش،ق،ك،ه،ط،ح،خ) والمهموسات تصلح للتعبير عما لا يرى بالعين المجردة، والبحر المستعمل هو الطويل وتقطيعه كالاتي:

تمنيت أنن لخمّر حللت لنشوقهن	تجهلني كيف طمأنت بي لحالو
0//0 // 0/0 // 0/0 /0/ // 0/0//	0/0/0/ // 0/0// 0/0/0// //0//
فعلن مفاعيلن فعولن مفاعلن	فعلن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

ويقول في قصيدة أخرى منوعا فيها للأصوات:

ألا إنما الدنيا نحوس لأهلها	فما في زمان أنت فيه سعود
يوصي الفتى عند الحمام كأنه	يمر فيقضي حاجة ويعود
وما يئست من رجعة نفس ظاغن	مضت ولها عند القضاء وعود
تسير بنا الأيام وهي حثيثة	ونحن قيام فوقها وقعود ⁽¹⁾

فمن خلال هذه المقطوعة يتبين أن الحروف كانت فيها متنوعة وكل حرف تكرر أربع أو خمس مرات في البيت، ومن هذه الحروف نجد أن حرف (النون) في البيت الأول تكرر (5) مرات، وفي البيت الثاني تكرر حرف (الياء) (4) مرات، أما في البيت الثالث فتكرر حرف (العين) كذلك (4) مرات، والبيت الأخير تكرر فيه حرف (القاف)، (3) مرات.

وجاءت الأبيات بحرف الروي (الدال) والردف هو الواو والمجرى هو الضمة التي هي فوق حرف الروي، والواو وصل.

أما البحر المستعمل فهو بحر الطويل وقد وردت فيه بعض الزخافات كالحذف والقص غيرها. إذن هذا عن بعض أنواع التكرارات للحروف التي وجدت في شعر أبي العلاء المعري إذ شكلت نغما موسيقيا رنانا في القصيدة.

ومن أصناف الإيقاع أيضا التي يستند إليها الشاعر في التعبير عن غربته ما يسمى بالتصدير الذي يقول عنه السكاكي: « ومن جهات الحسن رد العجز عن الصدر، وهو أن يكون إحدى الكلمتين المكررتين، أو المتجانستين، أو الملحقين بالجناس في آخر البيت، والأخرى قبلها في أحد المواقع الخمسة من البيت،

(1) أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 211-212.

وهي: صدر المصراع الأول، وحشوه، وآخره، وصدر المصراع الثاني، وحشوه»⁽¹⁾، والتصدير هو من الحلل اللفظية التي تزيد المعنى حسنا وجمالا.

وانطلاقا من قول السكاكي يظهر لنا التصدير الذي جاءت كلمته في صدر المصراع الأول في:

بشاشة أيام مضت وشبيبة بشاشة خانت أهلها وبشاش⁽²⁾

ويقول:

أنوار مهلا كم ثوى من ربرب نور ولاحت في الدجى أنوار⁽³⁾

فالتصدير في البيتين هو (بشاشة وبشاش) في البيت الأول أما في البيت الثاني فيكمن في (أنور وأنوار).

ومن النوع الثاني؛ أي ما جاءت كلمته الأولى في حشو المصراع الأول نجد:

إذا إشتاقت الخيل المناهل أعرضت عن الماء فاشتاقت إليها المناهل⁽⁴⁾

ويقول أيضا في هذا النوع:

لقد زار بي طيف الخيال فهاجني فهل زار هذي الإبل طيف خيال؟

إن كان إبليس ذا جند يصول بهم فالنفس أكبر من يدعو إبليس⁽⁵⁾

فالتصدير في البيت الأول بين (المناهل والمناهل)، أما في الأبيات الأخرى فنجده ماثلا في عبارة (طيف

الخيال وطيف الخيال) هذا عن البيت الأول، أما البيت الثاني فنجده في (إبليس وإبليس).

أما النوع الرابع فيظهر في قوله:

عداوة الحمق أعفى من صداقتهم فابعد من الناس تأمن شره الناس⁽⁶⁾

فالتصدير يكمن في (الناس والناس).

كما استعمل الشاعر التدوير في قصائده وهو كثير، فأغلب قصائده تحتوي على هذا النوع،

و«البيت المدور في تعريف العروضيين هو ذلك الذي اشترك شطراه في كلمة واحدة بأن يكون بعضها

في الشطر الأول وبعضها في الشطر الثاني»⁽¹⁾، ويظهر ذلك في قول المعري:

⁽¹⁾ السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987، ص: 430-431.

⁽²⁾ أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج2، ص: 491.

⁽³⁾ أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص: 310.

⁽⁴⁾ أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 109.

⁽⁵⁾ أبو العلاء المعري: اللزوميات ج2، ص: 459.

⁽⁶⁾ أبو العلاء المعري: اللزوميات ج2، ص: 475.

ثم شاب الدجى، وضاق من الهجـ
ونضا فجره، على نسرهِ الـ
إلى أن يقول:

وعلى الدهر من دماء الشهيد يـ
فما في أواخر الليل فجرا
ثبتا، في قميصه، ليجيئ الحشـ
من علي ونحله شاهدان
ن وفي أولياته شفقـان
ر، مستدعيا إلى الرحمن

إلى آخر القصيدة ، فهي كلها تقريبا مبنية بهذا الشكل.

ويقول المعري في موضع آخر يشكو من الحياة:

تعب كلها الحياة، فما أعـ
إنّ حزنا، في ساعة الموت أضعا
إنما ينقلون من دار أعـما
جب إلا من راغب في إزدياد
ف سرور، في ساعة الميلاد
ل إلى دار شقوة، أو رشاد⁽³⁾

والشيء الملاحظ أنّ التدوير أكسب البيت غنائية عذبة وانسيابا للألحان وليونة وذلك لأنه يمدده ويطيل نغماته.

ومن بين أصناف الإيقاع التي اعتمد عليها الشاعر أيضا التصريع والذي يظهر في قوله:

بقيت وما أدري بما هو غائب
تود البقاء النفس من خيفة الردى
على الموت يجتاز المعاشر كلهم
لعل الذي يمضي إلى الله أقرب
وطول بقاء المرء سم مجرب
مقيم بأهليه ومن يتغرب⁽⁴⁾

ويقول:

أولو الفضل في أوطانهم غرباء
فما سبثوا الراح الكमित للذة
تشطّ وتنأى عنهم القرباء
ولا كان منهم للخراد سباء

(1) رمضان الصباغ: في نقد الشعر العربي المعاصر، ص: 232 - 233.

(2) أبو العلاء المعري: سقط الزند، ص: 92.

(3) أبو العلاء المعري: سقط الزند ، ص: 197.

(4) أبو العلاء المعري: اللزوميات ج1، ص: 65.

وحسب الفتى من ذلة العيش أنه
ويقول أيضا في هذا المقام:

إن كسرتني يد المنايا
أمرت بالغدر أم دفر
لعمري لقد طال هذا السفر
أأخرج من تحت هذي السماء
وكم عشت من سنة في الزمان
وجاوزت من رجب أو صفر⁽³⁾

يروح بأدنى القوت وهو حياء⁽¹⁾
فما الأطباء جابريا
ولم أطع فيك آمريا⁽²⁾
علي وأصبحت أحد والنفر
فكيف الإباق وأين المفـر
وجاوزت من رجب أو صفر⁽³⁾

وهكذا يبدو التصريح في الأبيات الأولى من هذه المقاطع فنجد في المقطوعة الأولى متمثلا في حرف (الباء) المتواجد في نهاية الشطر الأول وكذا نهاية الشطر الثاني، أما في الأبيات الأخرى من المقاطع فهو موجود مثلا في حرف (المهزة) و (الياء) و (الراء). وهي كلها تصريحات منحت هذه الأبيات حسنا ورونقا وأعطتها إيقاعا منتظما ومتوازنا يستهوي السمع وترتاح له الأذن.

وخلاصة القول أن أبا العلاء المعري كان يحاول دائما تفجير طاقته في مجال اللغة من أجل التعبير وذلك بتوظيف ألفاظ جيدة وقوية وصور منمقة وإيقاع متوازن، وهدفه من ذلك هو نقل تجربته الحياتية وشعوره وحالته النفسية، فجاءت معانيه بذلك عميقة وصوره ثرية وموسيقاه موحية.

(1) أبو العلاء المعري: اللزوميات ج2، ص: 35.

(2) أبو العلاء المعري: اللزوميات ج2، ص: 872.

(3) أبو العلاء المعري: اللزوميات ج1، ص: 414.

خاتمة :

لقد رأيت - في هذا البحث - كيف أن الاغتراب كموضوع ومصطلح تعرّض لكثير من الدراسات و التعريفات من طرف العلماء والأدباء والنقاد فلمسنا بذلك تعريفات له في المعجمات العربية وغير العربية وهذا ما يعكس مدى أهمية هذا الموضوع.

فهو موضوع قديم ظهر في الشعر العربي ومنذ العصر الجاهلي إلى غاية العصر العباسي؛ العصر الذي ظهر فيه شاعرنا وقد عانى منه نتيجة تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي دفعت به؛ أي المعري وغيره إلى الهجرة و الابتعاد والاغتراب عن هذا الواقع بكل ما فيه .

والاغتراب أنواع كثيرة منها الاغتراب الاجتماعي والسياسي والاغتراب المكاني و الرماني و الاقتصادي والروحي وحتى الإغتراب الذاتي وغيرها من الأنواع التي لحقت بالإنسان، والمعري واحد من الذين أحسوا ببعض أنواع الإغتراب وعانوا منها وهذا ما حاولت تبينه في هذا البحث عن طريق تلك الأشعار التي تعدّ المادة الخام والمادة الأولية لموضوعي هذا ، مستوحاة - بطبيعة الحال - من ديوانيه سقط الزند واللزوميات.

ولكن المعري لم يقف مكتوف الأيدي، يتفرج ويلمح معاناته من هذا الاغتراب فقط بل تعدى إلى البحث عن وسائل وطرق للقضاء أو على الأقل الحد من هذه الظاهرة منها مثلا العزلة عن الناس والمجتمع و ذلك بالبقاء في بيته ملتزما بإياه بعيدا عن المشاكل مكبًا على الدرس والتأليف ، ولكن بقاءه في بيته لم يمنع الناس من زيارته في عقر داره للاستفادة من علمه ، أو الفصل في بعض القضايا الشائكة - مثلما لاحظنا - فصله في قضية أسد الدولة - صالح بن مرداس - حين طالبه قومه بالخروج ليشفع لدى هذا الأخير.

كما استعان إضافة إلى العزلة بالزهد ، فقد وجده طريقة ناجحة للتخلص من الاغتراب، فهو ربما حتى يوجه فكره إلى الله سبحانه وتعالى و التفكير في موجوداته ومخلوقاته وقدراته و يكون بذلك قد حول فكره وعقله إلى مجال آخر بعيد عن مجال الاغتراب والسجن و القيد .

فاغترابه وانعزاله كان سببا في زهده وورعه وخوفه من الله ومن حقيقة الموت بعد هذه الرحلة الشاقة في حياته و هذا ما شجّعه على طلبها - مثلما رأينا - وتمنيها بعد ماكره وملّ الحياة والدنيا بما فيها لأنها في نظره لا تبعث إلّا على الشر ، فهي دار شرور مثلما قال المعري وعبر على ذلك بأييات كثيرة تشرح وتبين هذه الحقيقة الكامنة في نفسه وتفكيره.

وقد تشكّل شعر الاغتراب عند المعري من عناصر فنيّة كالمعجم الشعري، إذ استمد فيه مادته اللغوية من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف هذا ما يعكس لنا ثقافته الدينية وكذلك استند على الشعر العربي القديم؛ فهو أحسن ديوان جامع لأخبار العرب وأيامهم وأنسابهم، كما استند على التاريخ سواء الإسلامي والعام.

إضافة إلى المعجم الشعري نجد عنصر للصور الفنيّة التي أولاهها عناية خاصة، ونوع فيها كالتشبيه والاستعارة والكناية كما أنّ للصورة البديعية أهمية ودورا كبيرا في التعبير عن غربته فهي ليست زخارف لفظية بل تعد عنصرا بنائيا هاما في القصيدة إضافة إلى تقوية المعنى تقوم بإثراء الشعر إيقاعيا، وتظهر هذه الصورة في الطبقات المختلفة والمقابلات إضافة إلى الجناس.

كما لا ننسى الموسيقى الشعرية فهي من أهم العناصر التي ارتكز عليها شعره، وقد امتازت موسيقاه بالتنوع والثراء فلمح الطباق والمقابلة والتكرار إضافة إلى التصدير بأنواعه والتدوير والترصيع والوزن والقافية والرويّ وهي كلها عناصر تتظافر فيما بينها لتكون في الأخير بنية إيقاعية متميزة. فهذه مقتطفات أو ملخص يحمل أهم ما قدمته في موضوع الإغتراب في شعر أبي العلاء المعري، والذي أفرز جملة من النتائج أوجزها في النقاط التالية:

1- على الرغم من وجود بعض المؤلفات والكتب التي تتحدّث عن الشاعر وثقافته ومختلف محطات حياته، إلا أنه يصعب علينا إيجاد هذا الموضوع الذي طالما تحدّثنا عنه عند هذا الشاعر ألا وهو الاغتراب الذي عرف به عن طريق شعره ومن مخلفاته وآثاره.

2- من بين الأنواع التي شهدنا أثرها على المعري هو اغترابه الزماني فالنوايب التي مر بها الشاعر والأحداث التي عايشها في وقته وعصره جعلته يسخط على هذا الزمان وينعته بمختلف النعوت، والأدهى من ذلك سخطه على أهل زمانه، وهذا ما جعله يغترب عنه - الزمان - وينفصل، وقد ترددت بعض المفردات التي تدور في فضاء موضوع الاغتراب الزماني من مثل الزمان والزمن، الدهر، الليالي، الخطوب، الأيام وغيرها من الألفاظ التي تدلنا على هذا النوع من الإغتراب، والتي يمكن عدّها مظهرًا يتناسب مع نزعتة التشاؤمية وميله إلى الشكوى.

3- كما عانى الشاعر من الاغتراب الاجتماعي إذ لعبت فيه القيم الفاسدة وانقلاب الموازين وتفشي الآفات والعادات السيئة دورا كبيرا في إذكاء لهيب الاغتراب والانفصال عن المجتمع، وقد شمل الاغتراب عن المجتمع مواضيع عديدة منها الاغتراب عن الناس الذين هم في نظره سبب المشاكل والآفات الاجتماعية لذا وجب مقاطعتهم والابتعاد عنهم قدر المستطاع، إضافة إلى الاغتراب عن القيم الظاهرة في المجتمع والتي تعكس فساده وانحلال أخلاق أهله وناسه.

4- وقد تعرض أبو العلاء المعري إضافة الى قيم المجتمع إلى بعض القضايا السياسية، فجاهر بآرائه تجاه السياسيين فأمر بالعدل وعدم الظلم الذي تفسى كثيرا في المجتمع من طرف الحكام، فهو يطمح بحجىء إمام عادل يحكم عقله ليميز بين الخير والشر وبين الظلم والعدل وغيرها من القيم

5- وقد لقي الاغتراب المكاني حظه الوافر في شعر المعري، حيث هجر بلده المعرة إلى بغداد ليقوم فيها سنين وقد كانت للظروف المعيشة في ذلك الوقت دورا كبيرا في رحيله عن بلده ولكن - وهذا الملاحظ- مهما كانت الأسباب والدواعي التي جعلته ينأى عن بلده، إلا أنه كان يكره في حقيقة الأمر الابتعاد عن وطنه الأم وهذا ما لمسناه في قصيدته التي عاتب فيها خاله حين هاجر بلاده إلى المغرب، هذا ما يعكس حبه الشديد لوطنه بالرغم مما عاناه منه ومن ناسه، وقد اكتسب الاغتراب المكاني عنده وما ينتمي إلى عائلته اللغوية أبعادا عميقة من حيث إطرادها حيث ترددت في ديوانه سقط الزند واللزوميات (35) مرة ، إضافة إلى بعض الكلمات التي لها نفس المعنى مع الاغتراب كالانعزال والبقاء والهجران والتزوح والارتحال وهي كثيرة في ديوانه مما يوحي لنا باستحواذ هذه الألفاظ على فكره.

6- لقد تجلّى في شعره الحنين والشوق سواء إلى الوطن وأهله في هذا الوطن أو الى بغداد بعدما رجع منها إلى المعرة.

7- مخالطة الناس فيما مضى و معرفة سلوكا قهم ، والتعرف على هذا الزمان جعله يبدو غريبا وهو في عقر داره بين ناسه وأهل زمانه مما ترك له مخلفات كثيرة كانفصاله عن هذا المجتمع والتفكير في عدم مخالطة أهله وناسه بل والأكثر من ذلك حين إقتنع بعدم الزواج والإنجاب لكي لا تمتلئ الدنيا بأولاد يعانون مثله ويعاني الناس من شرورهم، لذلك فكّر في طرق تخفف من حدة هذا الاغتراب ولم يجد حلا إلا في الزهد والعزلة والانكباب على الدرس والتأليف والعبادة.

8- وقد تميز معجمه الشعري بخصائص إضافة إلى تنوع مادته التي إستقاها من القرآن الكريم والتاريخ والشعر العربي القديم وقد إمتاز بالثراء وتعدد أساليبه من مثل التكرار وتوظيفه لأدوات الاستفهام الذي أخذ أشكالا متعددة ومعاني مختلفة: كالنفي والتمني و التحسر وغيرها، وكذا مزجه بين هذا الموضوع؛ أي الاغتراب وموضوعات أخرى كالطبيعة والغزل.

9- كما نجد إضافة إلى المعجم الشعري والصورة الشعرية التي كان لها الدور البارز في التعبير عن غربته الموسيقى الشعرية التي امتازت هي الأخرى بالتنوع و الثراء؛ فنجد مثلا الوزن الذي استعمله الشاعر غالبا ما يكون بجره الطويل و الكامل والبسيط، وقد أدخل فيها بعض التعديلات وذلك للضرورة الشعرية.

كما أنّ هناك خصيصة إيقاعية تظهر في شعر الإغتراب ألا وهي التكرار الذي يشمل بعض الحروف في قصيدة واحدة، أو تكرار حرف واحد في أبيات عديدة ، فهذه التكرارات ساهمت في بناء الإيقاع الداخلي .

ولعلي في الأخير بهذا البحث المتواضع ، أكون قد أسهمت في تجلية وتبيين- قدر المستطاع- لهذا الجانب الخفي لدى شاعر يعدّ من بين الشعراء المهمين الذي يليق بنا وبغيرنا بالاهتمام به وبأشعاره التي كانت خير ترجمان على كوامن نفسه وخبايا عقله ، فأرجو أن أكون قد وفقت في رسم صورة واضحة عن موضوع الاغتراب في شعر أبي العلاء المعري ، هذا الشاعر الذي عجز كثير من الناس عن فهمه لطبيعته الحساسة وسلوكه المميز وحسّه المرهف وحده الدقيق ، والله الموفق وهو الهادي الى طريق الرشاد.

والحمد لله رب العالمين.

التشجير الموضوعاتي



قائمة المصادر والمراجع

- 1- القرآن الكريم.
- 2- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه - ونقده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001.
- 3- ابن العديم: أبو العلاء المعري، دار سعد للطباعة والنشر، مصر، (د، ط)، 1945.
- 4- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، طبعة جديدة.
- 5- أبو العلاء المعري: اللزوميات، حققه وأشرف على طباعته جماعة من الأخصائيين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ط)، 2001.
- 6- ديوان سقط الزند، شرحه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990.
- 7- شرح ديوان سقط الزند، شرح وتعليق، ن، رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1987.
- 8- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب، (د، ط، د، ت).
- 9- أبو حيان التوحيدى، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرحه غريبه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1997.
- 10- أبو هلال العسكري: الصناعتين، الكتابة والشعر، حققه وضبط لغته: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1989.
- 11- إحسان عباس، إتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1988.
- 12- أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1998.
- 14- امرؤ القيس، الديوان، ضبطه وصححه مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ط، د، ت).
- 15- إلياس خوري، الذاكرة المفقودة، دراسات نقدية، شؤون فلسطينية، بيروت، ط1، 1982.
- 16- إيليا الحاوي: شرح ديوان أبي تمام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1981.

- 17- // // ، في النقد والأدب ، مقدمات جماعية عامة مقطوعات من العصر الإسلامي والأموي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط5.
- 18- بدر ضيف: شعر طريح بن إسماعيل الثقفي، دار الوفاء، ط1، 2004.
- 19- البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، المطبعة الميرية ببولاق، ط1، (د،ت).
- 20- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1992.
- 21- جاك شورون: الموت في الفكر العربي، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة إمام عبد الفتاح، الكويت ،سلسلة عالم المعرفة، يناير 1978.
- 22- الجرجاني: الوساطة بين المتبني وخصومه، تحقيق وشرح أبو الفضل إبراهيم، علي البيضاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د، ط).
- 23- جعفر خريباتي: أبو العلاء المعري رهين المجيسين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990.
- 24- حاتم الطائي: الديوان، شرحه وقدم له أحمد رشاد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1986.
- 25- حسن جعفر نور الدين: لبيد بن ربيعة العامري _ حياته وشعره _ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1990.
- 26- حنا الفاخوري : منتخبات الأدب العربي ، منشورات المكتبة البوليسية ، بيروت ، لبنان ، ط5، 1970.
- 27- الخطيب التبريزي: ديوان أبي تمام ، دار المعارف، مصر، ط2، (د، ت).
- 28- خليل شرف الدين: في سبيل موسوعة فلسفية، أبو العلاء المعري ، دار مكتبة الهلال ، 1995.
- 29- خليل مرسي: الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، مطبعة الجمهور، دمشق، ط4، (د، ت).
- 30- دانييل برجيز: مدخل الى مناهج النقد الأدبي، ترجمة رضوان ظاظا،مراجعة المنصف الشتوفي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1997.
- 31 -الرازي: مختار الصحاح، تحقيق وشرح وضبط سعيد محمود عقيل ، دار الجليل ، بيروت ، لبنان، (د، ط)، 2002.
- 32- رجاء عيد: التجديد الموسيقي في الشعر العربي، دار النهضة العربية، بيروت، 1984.

- 33- رمضان الصّبّاغ : في نقد الشعر العربي المعاصر، دار الوفاء، (د، ت، د، ط).
- 34- ريتشارد شاخنت: مستقبل الاغتراب مع دراسة المشروع الفلسفي عند ريتشارد شاخنت، ترجمة وهيبة طلعت أبو العلا ، منشأة المعارف، (د، ط، د، ت).
- 35- الزمخشري : أساس البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998 .
- 36- زهير بن أبي سلمى: الديوان شرحه وقدم له علي حسين فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998.
- 37- الزوزني : شرح المعلقات العشر، دار الفكر، بيروت، لبنان ، ط1، 2005.
- 38- السعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث، دار النهضة العربية ، بيروت، لبنان ، 1984.
- 39- السكاكي: مفتاح العلوم ، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط2، 1987.
- 40- سميرة سلامي: الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، دار الينايع، دمشق ط1، 2000.
- 41 - سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين ، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، (د، ت).
- 42 - شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر، (د، ط، د، ت).
- 43- // // ، دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية، ط8، (د، ت).
- 44- // // ، فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، الطبعة الثالثة، (د، ت) .
- 45- صالح زامل: تحول المثال دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003.
- 46- صبحي حموي: المنجد في اللغة المعاصرة، دار المشرق، بيروت، ط1، 2000.
- 47- صلاح فضل: الأساليب الشعرية في اللغة المعاصرة، بيروت، ط1، 2000.
- 48- // // ، مناهج التّقد المعاصر ، دار الآفاق العربية ، (د، ط، د، ت).
- 49- طه حسين: أبو العلاء المعري ، حياته وشعره، دار النفس للنشر (د، ت، د ، ط).
- 50- // // ، تعريف القدماء بأبي العلاء ،الدار القومية للطباعة والنّشر ،القاهرة ، 1965.
- 51- // // ، المجموعة الكاملة، أبو العلاء المعري، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ط2، 1983.

- 52- عائشة عبد الرحمن : مع أبي العلاء في رحلة حياته، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1972.
- 53- عبد الحفيظ بولخراس :الغربة والحنين في شعر ابن حمديس الصقلي ،رسالة ماجستير ،جامعة فرحات عباس سطيف ،2005.
- 54- عبد الحميد جيدة: الإتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل ، بيروت، ط1، 1980.
- 55- عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري ، إتحاد كتاب الجزائريين، ديدوش مراد، الجزائر، ط1، 2003.
- 56- عبد الرحمن تبرماسين، العروض وإيقاع الشعر العربي، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1، 2003.
- 57- عبد الرزاق قسوم، مفهوم الزمان في فلسفة بن رشد، المؤسسة الوطنية للكتاب، 3 شارع زيغود يوسف، الجزائر، 1986.
- 58- عبد القادر زيدان: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري، دار الوفاء، ط1، 2004.
- 59- عبد القادر عبد الحميد زيدان ، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، دار الوفاء، ط1، 2003.
- 60- عبد الكريم حسن: المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط2، 1996.
- 61- عبد الله التطاوي، القصيدة العباسية قضايا واتجاهات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، (د، ت، د، ط).
- 62- عبد المالك مرتاض: الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور، دار هومة ، (د، ت)، 2005.
- 63- عبده بدوي: الغربة والاعتراب والشعر، دار قبا للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998
- 64 - عدنان قاسم: الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر - دراسة نقدية في أصالة الشعر منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1980.
- 65- عز الدين إسماعيل:قضايا الشعر العربي المعاصر، دراسات وشهادات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة، تونس، 1988.
- 66- عزّت حجازي: الشباب العربي ومشكلاته، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1985.

- 67-عزيز السيد جاسم: الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضى، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط1، 1986.
- 68- علي شلق: أبو العلاء المعري والضباية المشرقة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1981.
- 69- علي فاعور: ديوان أبي نواس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994.
- 70- ديوان الفرزدق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ط، د، ت)، .
- 71- عمر بوقرورة: الغربية والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945-1962)، منشورات جامعة باتنة، (د، ط، د، ت).
- 72- عمر الفروخ: حكيم المعرة: دار لبنان، بيروت، لبنان، (د، ط، د، ت).
- 73- عمر يوسف قادري: التجربة الشعرية عند فدوى طوقان بين الشكل والمضمون، دار هومة، (د، ط، د، ت).
- 74- فاضلي إدريس: الوجيز في المنهجية والبحث العلمي، جامعة الجزائر، 2003/2002.
- 75- فاطمة حميد السويدي: الاغتراب في الشعر الأموي، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997.
- 76- الفيروزآبادي: القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، 2005.
- 77- كريم زكي حسام الدين: الزمان الدلالي، دراسة لغوية لمفهوم الزمن وألفاظه، في الثقافة العربية، دار غريب، القاهرة، (د، ت)، ط2.
- 78- مجموعة من المفكرين المتخصصين: فكرة الزمان عبر التاريخ، ترجمة: فؤاد كامل، مراجعة شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، يناير 1978 .
- 79- محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار المعرفة الجامعية (د، ط)، 1998،
- 80- محمد الطيب محمد النادي: تاريخ الأدب والنصوص الأدبية، مكتبة الوحدة العربية، الجزائر (د، ط، د، ت) .
- 81- محمد علي بيضون: شرح ديوان عنترة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2002.
- 82- محمد مصطفى أبو شوارب: جماليات النص الشعري قراءة في أمالي القالي، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2005.

- 83- محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة، (د، ط)، 2001.
- 84- مصطفى أمين وعلي الجازم: البلاغة الواضحة، دار المعارف، ط16 .
- 85- مصطفى البشير قط: قراءات في النقد والأدب، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1، 2008.
- 86- مصطفى صالح كشاف: مصادر دراسة أبي العلاء المعري، مطبعة العلم، دمشق، 1978.
- 87- موريس أنجرس : منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، ترجمة بوزيد صحراوي، كمال بوشرف ، سعيد سبعون ، دار القصبه للنشر ،(د،ط)،2004.
- 88- مي يوسف خليف: ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (د،ط،د، ت).
- 89- وهب رومية : شعرنا القديم والنقد الجديد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، مارس 1996.
- 90- يحيى العبد الله: الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، ط1، 2005.
- 91- يوسف الخال: الحداثة في الشعر ، دار الطليعة، بيروت، (د، ط، د، ت).
- 92- يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية ، ط3، (د، ت).
- 93- // // ، في الشعر العباسي نحو منهج جديد، مكتبة غريب دار قبي للطباعة (د، ط، د ، ت).
- 94- يوسف الشيخ محمد، ديوان البحري، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1، 1987.
- 95- يوسف فرحات: كتاب الموسوعة الفلسفة الإسلامية وأعلامها، ط1، 1986.
- 96- يوسف وغليسي: محاضرات النقد الأدبي المعاصر ، منشورات جامعة قسنطينة 2004-2005

المجلات والدوريات:

- 97- الأخضر عيكوس: الخيال الشعري وعلاقته بالصورة الشعرية ، مجلة الآداب ، جامعة قسنطينة، ع1، 1994.
- 98- حسن محمد حسن حماد :الإغتراب عند أبي حيان التوحيدي ،دراسة فلسفية من خلال الفكر الوجودي ،مجلة فصول،القاهرة ، ع3، خريف 1995.
- 99- الطاهر رواينية :القراءة الموضوعاتية للنص الأدبي ،مجلة اللغة والأدب ،جامعة الجزائر، ع11، 1997.

100- فاروق شوشة: لزوميات المعري، صوت إحتجاج وإدانة، مجلة العربي، الكويت، ع534، مايو، 2003 .

101- قيس النوري: الاغتراب اصطلاحا ومفهوما، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع1، 1979.

المواقع الإلكترونية:

102- صبار نورالدين: الاغتراب بين القيمة المعرفية والقيمة الجمالية، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد

كتاب العرب، دمشق، ع355، 23 سبتمبر 2003، [www. a w u. dam. org](http://www.awu.dam.org).

103- غسان السيد: الاغتراب في أدب زكريا تامر، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب،

دمشق، ع352، 23 سبتمبر 2003، www.awu.dam.org.

104- القاموس المحيط والقابوس الوسيط. www.al-emon.com

105- محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب

العرب، gwww.awu.dam.or

106 - ياقوت الحموي، معجم البلدان. www.al-mostafa.com

فهرس المحتويات

شكرو عرفان:

الصفحة

إهداء

مقدمة

f

05

تمهيد

الفصل الأول: مفهوم الاغتراب وأنواعه وجذوره في الشعر العربي القديم

10

1- مفهوم الاغتراب

18

2- أنواع الاغتراب

21

3- جذور الاغتراب في الشعر العربي القديم

الفصل الثاني: الاغتراب الزماني في شعر المعري

39

توطئة

41

1- الشاعر وأحداث الزمان

47

2- الشاعر والموت

الفصل الثالث: الاغتراب الاجتماعي والسياسي في شعر المعري

58

1- الاغتراب عن الناس

68

2- الاغتراب عن قيم المجتمع وعاداته وأعرافه السائدة

74

3- الاغتراب السياسي

الفصل الرابع: الاغتراب المكاني في شعر المعري

80

1- الاغتراب عن الوطن عند أبي العلاء ودواعيه

86

2- تجليات الشوق والحنين في شعر المعري

87

أ- الحنين إلى الوطن (المعرة)

91

ب- الحنين إلى بغداد

97

3- طرق قهر الاغتراب عند المعري

97

أ- العزلة

98

ب- الزهد

103	التشجير الموضوعاتي.....
	الفصل الخامس: العناصر الفنية في شعر الاغتراب عند المعري
107	توطئة.....
108	أ- المعجم الشعري.....
124	ب- الصورة الفنية.....
134	ج- البنية الإيقاعية.....
145	خاتمة.....
150	قائمة المصادر والمراجع.....
157	فهرس المحتويات.....